

رواية
أسفل
قاع المدينة
مدونة ابو عبدو
إيهاب عدلان
الطبعة الثانية

أسفل قاع المدينة

رواية

المؤلف : إيهاب بابكر عدلان

الإخراج الفنى :

أيمن رياض

الطبعة الثانية : أبريل ٢٠١٥

رقم الإيداع : 2015/ 7966

الترقيم الدولى : 3 -978-977-769-055

توزيع السودان: أمانى أبو الريش

00249118776697

الناشر : **أوراق للنشر والتوزيع**

awraaq@live.com

446 شارع الهرم - أبراج نصر الدين -

عمارة 3 - الدور 11

01221110435

إهـداء

إلى أمي دومـاً.. التي عـاست لنا الكسـرةَ على ظفـرِها، وأطعمتنا منها حتى شبعنا!.

وإلى أبي.. الذى عرف أكثر مما ينبغي، فخانهُ وعيهُ!.

وإليها.. تلك التي كانت لي معها بعض المشاوير.

أهدي هذه الرواية

(١)

دفـترٌ من البرنسيسِ أمامُنا.. وربعُ رأسٍ من البنقو.. علبة سجائر، وولاعة خضراء.

- هاك لف يا صديق.

مددتُ له ورق البرنسيس بيدي اليمنى، استلمها أحمد بيدهِ اليسرى، ونصف ابتسامةِ مائلة على فمه، مزيج هي من الغبطةِ والتهكُم.

كـان صـديقي أحـمـد أفـضل من يكفن رفـات البنقـو بورق البرنسيس، وهو ورقٌ رهيف وشفاف بشكل مستطيل صنع خصيصاً لهذا الغرض.

كنت أحب طريقتهُ تلك التي يُلصق بريقهِ بها أطراف ثلاث ورقات من البرنسيس بشكل مستطيل، ويضع عليها تباكو سجارتين من السجائر العادي، وهنا أمد له خام البنقو على علبة سجائر فارغة بعدما أكون قد هرستهُ بأضراسي جيداً لكى

يوزعهُ على التباكو بشكلٍ متساوٍ. ويبرمهُ بطريقةِ معينة، ثم يمرر لسانه على طرفِها البارز مرة واحدةً فقط ويكون هنا طرفاها قد التصقا، ومن ثم يبرم رأسها بالإبهام والسبابةِ وبذا تكون قد استوت.

كل البنقو تقريباً يُلَفُّ بهذه الطريقة، غير أن أحمد كان يتقنُها لدرجةِ إن قذفتَ بسجارتهِ على الحائط بقوةٍ ترتدُ إليك غانمةً سالمة. يجعلها مستقيمةً كقلم، أحد طرفيها أضخم من الآخر كقضيبِ معاملِ الكيمياء!.

كنا نعشق وهم البنقو وطقوسه، فبعد النفسِ الثالث نكون قد دخلنا عالماً آخر لا مكان فيه للأحزان.

نبتكُر النكتةَ من أي شيءٍ، نسخرُ من كلِ شيءٍ، ولا نرى شيئاً حقيقياً سوى ذواتنا وما عدانا عبارة عن كرتون لرسومٍ متحركة.

بعد أن ننتهي من تدخينِ سيجارة كاملة، يكون تفاعل خيالُنا إلى حدهِ الأقصى، وهنا نستطيعُ أن نجلب سورَ الصينِ العظيمِ أمامنا ونهدمهُ بإصبعنا الأصغر لنشيدهُ من جديد.

نتكلمُ عن الشعرِ والموسيقى، نحسُ القصيدةَ أضعاف ما كُنا نحسَها في وعينا الموضوعي العادي، نذكُر عظماءِ التاريخ

ونؤسطرهم أضعاف ما سمعنا عنهم أو قرأنا.

كثيرٌ ما يفضي بنا الخيالُ إلى حلمنا. الضفة الأخرى للمتوسط.. أوروبا ومدنها الجميلة. نزورُ متحفَ اللوفرِ في باريسِ ونتنقل بين مومياه.

نذهب برلين ومنها إلى لندن حيث شكسبير، وما سمعنا أو قرأنا عن شارع الأست لاند وما به من مجرمين وتجار مخدرات.

ثم تهبط بنا طائرةُ الدخانِ في مطارِ نيودلهي، فنزورُ مروجَ الهندِ ونتكلم عن بوليوود والمهاتما غاندي وطاغور.

وفجأةً، ننتبهُ إلى أننا في منطقةِ سوبا الأراضي هامشِ الخرطوم. نجلسُ في غرفةِ جوكسِ الصغيرةِ المبنية من الجالوص وممسكين بسيجارةِ بنقو!. فنضحكُ من المفارقة بشكلٍ هستيري، ثم نسُبُّ الواقعَ والحكومة، مما يكون مبرراً كافياً للفِ سيجارةٍ أخرى!.

لم يكنْ صديقي أحمد مثقفاً جداً، ولكنه كان ذكيًا بما يكفي ومستمعاً جيداً، وهذا كل ما كنتُ أحتاج إليه.

أحرز نسبةً متفوقة في الشهادةِ الثانوية مما أهَلَّهُ لدخولِ كلية الهندسةِ جامعة الخرطوم، تعرفتُ عليه في داخليةِ السكن

الطلابي حيث كنتُ طالباً في نفس الجامعة وتطورت صداقتنا بسرعة.

قضى شطراً من حياتهِ في منطقة سوبا الأراضي، وهى منطقة في إحدى ضواحي الخرطوم المُهمشة للغاية.

سكانُها ذوو وجوهٍ متعبةٍ وميتة، خارجون عن ذاكرةِ الدولة، لفظتهم المدينةُ فأثروا المكوثَ في القاعِ.

جميع منازلها من الجالوصِ المصنوع محلياً من الطينِ وروث البهائم. شوارعُها ذات أزقةٍ ضيقة، معوجةٍ ومُتداخلة كوكرِ أفاعي، وإن سلكتَ درباً قبل أن تبلغَ نهايتهُ غالباً ما تجد نفسك قرب سريرِ أحدهم.

إن مواطنيها ينتمون الى الدرجتين الثانيةِ والثالثة الاجتماعيتين حسب معاييرِ المركزِ الثقافي في السودان الذى يمنحُ نفسهُ حقَ التصنيفِ.

وبهذهِ المعايير كلما كان لونك أكثر سواداً كنت أقل مرتبة في السلم الاجتماعي. إن الفرق بين العبدِ والسيدِ عندهم هو لونُ بشرةٍ، وشكلُ سبيبةِ شعر.

إن السكان في سوبا الأراضي هم بعض الذين نزحوا إلى

الشمال من مُخلفات الحرب في الجنوب أو غرب البلاد.

الحرب التي رزحوا تحت نيرانِها سنينا عدةٍ وما خَلَفّتْ لهم سوى الفقرِ والجوعِ والمرضِ والحقدِ والغضب. جاءوا الى الشمالِ، إلى الذين أمعنوا في قتلَهم لينالوا الوظائفَ الأقل دخلاً من أعمالِ يدويةٍ وهامشيةٍ في العاصمة، فعاشوا في فقرٍ مُدقع مكونين مجمعاتٍ سكنيةً خاصةً بهم على أطراف الخرطوم، وأطلقوا عليها مُسميات ذات دلالة عميقةٍ مثل طردونا، ومانديلا، والله مافي، ورأس الشيطان وغيرها.

بعض المناطقِ حافظت على ذاتِ أسمائها، ولكن أقيمت أحياء داخلَها بمسمياتٍ مختلفةٍ مثل رئاسة اللواء في سوبا الأراضي، والتي كنتُ أذهبُ إليها مع أحمد إن كنا نريد إنجازَ الدخانِ. والإنجازُ هو النعتُ الذى يطلقهُ الكيِّفون على عملية الجلبِ، والدخان هو البنقو والكيِّفون هم متعاطو الدخان.

كان بعض سكانِ سوبا الأراضى العاملون داخل العاصمةِ، قد استطاعوا بشكلٍ أو بآخر التوغُل َداخل أسواقِ بضائعٍ معينة داخل العاصمة يمارسون السمسرةَ وغيرها من المهن المتوسطة، ولكنهم ظلوا داخل سوبا ولم يغادروها رغم ارتفاع دخولِهم. ربما كان ذلك لانفتاح المجتمعِ هناك!.

فسويا مُستودعُ للممنوعاتِ . فيها بيوتُ الشكشِ وهو الاسم الشعبي لبيوتِ الدعارةِ. كما أن تجارَ ومروجي الدخانِ في كل مكانٍ، وأجودُ أنواعِ الخمورِ البلديةِ التي تُعد من تمرِ النخيلِ وتنعت بالعرقي نسبةً إلى عرقِ البلحِ.

علاوةً على أنهُ لا توجدُ بها نقاطُ بوليسٍ أو مؤسسةٌ حكومية، ما يجعل من لغةِ القوةِ هي اللغةُ السائدة. حتى أن بها شارعاً يسمى بشارعِ الموتِ لتواجدِ جثة أو اثنتين به لأشخاصٍ مقتولين كل صباح. وغالباً ما كانوا عائدين من بيتِ العرقي سُكارى فترصدهم قطاعُ الطرقِ المشهورون في تلك المنطقةِ، فسلبوهم ما عندهم بعد أن ضربوهم أو طعنوهم ليغادروا بعدها.

لذلك لا يخرجُ أي شخصٍ بعد الساعةِ الثامنةِ مساءً إلاَّ ويكون حاملاً معه عصاً أو فأساً أو ساطوراً.

أما أسواقها، فهي مكتظةٌ بكلِ أنواعِ البضائعِ وذات دكاكين متداخلة ومتلاحمة مع بعضها البعض. تتخللها شوارعٌ قصيرة وُضيقة مثل متاهةٍ. فإن لم تكن من السكانِ الأصليين لن تستطيع سبر غورها، ولأفضى بك الطريقُ إلى نفسِ النقطةِ التي بدأت منها.

فمن الطبيعي أن تجد فيها دكاناً لبيعِ البقولياتِ بالجملةِ والقطاعي، أكثر من نصفِ بضاعتهِ في الخارج على طاولاتٍ من الخشبِ عليها طُساتةٌ من البلاستيكِ أو الألمونيوم فيها مختلفُ أنواعِ البقولياتِ من فولٍ وعدسٍ وغيرهما. يقاصدهُ في الاتجاهِ المقابلِ للشارعِ الذى لا يتجاوزُ عرضهُ مترين ونصف المتر طبليةٌ لبيعِ أحدث الهواتفِ النقالةِ، بجوارِها قصابٌ يعرِض لحمتهُ في العراءِ معلقةً على مشاجبِ من الحديدِ أُعُدت خصيصاً لذلك، والتالي له مباشرة ًمكانٌ للنفاياتِ يُحلق ذبابهُ فوق لحمتهِ دون أن يمنعَ ذلك الناسَ من شرائِها أو أن يُقللَ من سعرِها.

أما بائعات البهاراتِ والتوابلِ والتسالي، فهنّ مُنتشراتٌ على طولِ السوقِ وعرضهِ. تجد واحدةً منهنّ كل ثلاثةِ أو أربعةِ أمتارٍ، جالسةً على مقعدِها البنبرِ الصغيرِ وواضعةً بضاعتَها أمامها على طبقٍ أو صينيةٍ من الألمونيوم على طاولةٍ قصيرةٍ لا يتجاوزُ طولُها نصفَ المترا. وبضاعتها هذه هي الدكوةُ والفولُ المدمسِ، والشطةُ الحمراءِ والفلفلُ الأسودِ وفصوصُ الثومِ المقشرة والمعبأة داخل أكياسٍ صغيرة وغيرها.

فتجدهنّ بوجوهِهنّ الشاحبةِ المتعبة، وأجسادهنّ النحيلةِ يتتبعنك بنظراتٍ تتوسلُك الشراء.

كمــا أن بائعــات الشــاي في هذهِ الأســواقِ يخـتـلفنّ عن مثيلاتهنّ في الخرطوم. ففي أسواقِ الخرطومِ تكاد تُبصر على جميعِ عتبِ الدكاكينِ، والمحلاتِ وحتى الفسحاتِ العامةِ والميادين بائعة شاي.

فهنا تجد لهنّ أماكنُ مخصصةً، وهى عبارةٌ عن غرفٍ طويلةٍ من الجالوصِ بها طاولة أعدها النجارُ أو الحدادُ خصيصاً لبائعةِ الشاي التي تجلسُ خلفَها لإعدادِ طلبات الزبائن.

ويجب أن تكون بائعةُ الشاي بمقاييسٍ جسديةٍ معينةٍ، كأن تكون لها أردافٌ ممتلئةٌ ونهودٌ منتصبة وبارزة وقوامٌ جميل، ترتدى ثياباً كاشفةً لأماكنِ الجمالِ فيها.

فكلما زاد جمالُها ونظف مكانها زاد زبائنُها. وغالباً تمتلك جهازَ تلفازٍ وديجيتال على إحدى الزوايا لجلبِ الزبائن. ويكون لها بنتان أو ثلاثة يعملْنّ تحت إمرتِها يُلبِيْن طلبات الزبائنِ الصغارِ من الشاي والقهوة والتي يتم إعدادها بشكلٍ معين، أما الزبائن الكبار فتشرف عليهم هي بنفسها. مثل طويلةِ التي كنا نذهب إليها أنا وأحمد، وهى بائعةُ شاي مُقتدرة لها محلٌ في وسطِ السوق. وهذا ليس اسمها وإنما لُقِبت بذلك لفراعةِ قوامِها الجميل.

فعندما نذهب إليها ونحن مساطيل لنربط السيجارةَ بفنجانِ من قهوةٍ لتظل أطول فترةٍ ممكنة في دماغينا، كانت تعاملنا مثل الزبائنِ الكبار رغم عسر حالِنا. فتستقبلنا بحفاوةٍ وابتسامة تُسدل معها جفونها نصف غمضةٍ فتبدو أكثر غواية.

ولربما كانت تعاملنا كزبائنٍ كِبار لمعرفتِها أنّنا طلبةٌ جامعيون، فهذا رأس مالٍ رمزي لها أن يكون من زبائنِها جامعيون . فلا يوجدُ هناك من وصل الثانوية أصلاً فما بالك بالجامعة!. وهذا يحلُ عقدةَ نقصِها في مكانٍ ما!

نجلسُ على بنابِرها القصيرةِ وتكون أكثر متعةً لقربِها من الأرض التي طُرِحت عليها الرمالُ بعنايةٍ، مرشوشة بالماءِ على شكلِ خطوطٍ عِشوائية وأمامنا طاولاتٌ قصيرةٌ تتناسب مع بنابِرها.

تُحضِّر واحدة من بناتِها الماء البارد في إبريقٍ من الزجاجِ ومعه كوبين، وبعد مُدةٍ قصيرةٍ تجلب طويلةٌ لنا بنفسِها القهوةَ في صينيةٍ من النحاس أو الألمونيوم، عليها تنكةٌ وفنجانان، وسكرية وكوب صغير به ملعقتان صغيرتان في ماءٍ أحمر كزينة.

إضافةً إلى مُبخرٍ صغيرٍ عليه جمرتان وبعض حباتِ البخورِ.

فتميل علينا بطريقةٍ مقصودةٍ وببطء متعمد لنبصر ما جاد عليها به الإله من مفاتن.

فمع ميلها لوضعِ الصينية ينكشف صدرُها ويتدلى نهداها كثمرتي شجرة الباباي.. فيذهب بصرُنا صوبهما، وخيالُنا صوب لحظة قطفهما.

إن الثوب الشفاف المربوط على وسطِها، يُفصِل جسدها إلى نصفين ما يتيح لخيالنا المُهيأ سلفاً ممارسة ليلةٍ حمراء معها في المسافةِ التي تتوسط حضورها ولفظها لمفردة »كيف« ، بمعنى كيف حالكم؟. فنجيبها كما نُجيبها دائماً:

- بخير والحمد لله، أنتِ كيف؟

تقول دون أن تجيب على سؤالنا عن حالِها:

- طولتو.. !.

أي منذُ زمنٍ طويلٍ لم تأتوا، وهذا الزمنُ الطويلِ قد يكون أسبوعاً أو اثنين على أبعدِ تقدير!

تلفُظ مفردتَها هذه ثم تُهدينا ابتسامتها الجميلةَ تلك، وتمضى تاركة لنا فرصةَ تأمُلها من الخلف.

في آخر مرةٍ ذهبنا إليها استفزتنا مؤخرتُها وهى تُرقِصُها على

إيقاعِ خطوتِها عن عمدٍ. فقررنا أن نرجع إلى صالونِ الحلاقةِ الذى كنا نعمل فيه أحياناً لتلبيةِ مُنصرفاتنا ولنجمع بعض المالِ ونذهب إلى بيت علوية. وهو بيتُ دعارةٍ في سوبا نُواظب الذهاب إليه كلما رنّ جرسُ الجسد.

■ ■ ■ ■

في السودانِ لم تكنْ أبداً هناك دعارةٌ منظمةٌ، ومنذُ أن أعلن الرئيسُ السابق جعفر نميري قوانين الشريعة الإسلامية عام ١٩٨٣م. أصبح حتى شرابُ الخمرِ مُحرماً بنصِ القانون، وعاقبته أربعين جلدة.

ولذا أُعْتُبِر بيع الشاي بمثابة واجهة للدعارةِ بغض النظر عن الظروف الخانقة التي قادت المرأة إلى هذا العمل. كما كانوا يرتأون أَنهُ عملُ مقصور على نساءِ قبائلٍ بعينِها يُطلق عليهنّ الخدم. ويُعنى بهذا اللفظ نساء النوبةِ وبعض قبائلِ غرب السودان. أما نساء القبائل ذات الطابع العربي فيُكنينّ بالحرائرِ اللواتي لا يمكن أن يزاولنّ مثل هذه المهن، وكأن ما ينعنّ بالخدم هنّ مفطوراتٍ على فعل هذا.

وبعد أن وصلت الجبهة الإسلامية القومية إلى سدةِ الحكم في ١٩٨٩م، زادت الخميرة على عجين البؤس ليزداد انتفاخاً.

فأحالت آلاف المواطنين من عملِهم إلى ما يُسمى بالصالحِ العام. واستأنفت حربَ الجنوبِ بشكلٍ أكبر، ونهب مسؤولو السلطة أموال الشعبِ، فضاقت الظروفُ المعيشية بالمواطنين جميعاً بعد أن فرخت السلطة عشرات آلاف من العاطلين عن العمل، وارتفعت أسعارُ المواد الاستهلاكية الرئيسية، وأصبح التعليمُ والعلاج ُبأسعارٍ خرافيةٍ، وأضحت الوظائفُ الحكوميةِ مقصورةً على المُواليين للنظامِ . فسافر من المواطنين إلى بلاد النفط ممَنْ أُتيح له أن يسافر، ومن لم تُتح له الفرصةُ نزلت أختهُ أو أمهُ أو زوجتهُ معه إلى الشارعِ، تشاركهُ أي عملٍ يُتاح لها لتغطية منصرفاتِ المنزلِ. المنزل الذى أصبح يُقال عنه إنه كسريرِ الجنازةِ لا يستطيع حمله إلا أربعة أشخاص!

نزلت النساءُ إلى الأسواقِ يعُسنّ الكسرةَ ويطبخنّ الطعام البلدي ويبِعْنهُ. وكذلك الطعمية والتسالي والفول المدمس وغير ذلك. وتساوت ما تُسمى بالمرأةِ الحرة مع تلك المدعوة بالخادم في الأسواق ومجمعات العمل.

وبالتالي تصدعت مفاهيم التصنيف الاجتماعي للعمل، وأشاح أصحاب الذهنية الاستعلائية وجوههم، فتقلصت الكثير من الأفكار التي كانت تنطلي بها قيمٌ سلبيةٌ اتجاه العرِق!.

(٢)

كان دخلُنا من الصالونِ سيئاً للغايةِ، وذلك لكثرةِ صوالين الحلاقة في منطقةِ أركويت حيث كنا نعمل.

إضافةً لذلك لم يكن لدينا زبائن ثابتين، فلم نكن مثل الحلاقين الآخرين الذين يتقنون هذه المهنةِ ومارسوها مدة طويلة من الزمن في مكان ثابت، فأصبح لهم زبائنٌ يأتون إليهم من كل حدب وِصوب.

كنا بحكمِ أننا طلبة جامعيون نتعامل مع الحلاقةِ كنشاط ثانوي لتغطية المنصرفات، ومستفيدين من علاقتِنا مع صاحبِ الصالون الذى يعتقد أنه يساعدنا باعتبارِنا طلبة مجتهدين!

نأتي يومُ ونغيب ثلاثة ولا ضير، إذ إنّ الصالونَ يتعامل بالإيجار اليومي للكرسي، فإذا حلقت لشخص أو عشرة أو لم تحلق أنت مُلزم بدفع الإيجار في نهاية اليوم لصاحب الصالونِ.

وعليه، قررنا أن نُواظب خمسة أو ستةَ أيامٍ في الصالونِ، حتى نحصلُ على دخلٍ مناسبٍ يتيحُ لنا ما عزمنا القيام به من

ليلةٍ حمراء داكنة في سوبا بكل مستلزماتِها، مما يتطلب وضعاً مادياً جيداً.

أصبحنا نذهبَ إلى الجامعةِ في الصباحِ وبعد الظهرِ إلى الصالون، ونعمل حتى ساعةٍ متأخرة من الليلِ، ثم نعود إلى داخليةِ السكن الطلابي قُرب الجامعةِ وقبل أن ندخل نتصل هاتفياً بمُعلم إسحاق في نفقِ السكةِ حديد قرب الداخلية. والمُعلم هو اللفظ ُالشائع للمروجِ أو بائعِ الدخان.

كان إسحاق هو مُعلمٌ نعرفهُ بشكلٍ شخصي ويبيعنا ما رخص ثمنهُ وجاد مفعولهُ وغالبا ًما نأخذ منه »مدورة« ، وهى أصغرُ القطعِ التي تُباعُ من الدخانِ وأرخصها. ونشترى عُلبة السجائرَ وورقَ البرنسيسِ من أقربِ طبليةٍ. ومن ثم ندخلُ الداخليةَ ونتجهُ مباشرة إلى المسرحَ الذى قضينا ثلاث سنواتٍ في الجامعة ولم نشهدْ فيه مسرحيةً واحدة!.

كنا نجلسُ دوماً خلفهُ حتى لا يرانا أحدٌ من الحرسِ الطلابي في الداخلية، ونقيمُ عليه مسرحياتنا الخاصة من الدخان وما ينتجه لنا حُلوِ الخيالِ. ثم نخططُ ليومنا المُرتجى بعد عدة أيام في سوبا ونتحاور في عدةِ مواضيعٍ لا تتأذر ُأجزاؤها إلاّ تحت سيجارةِ الدخان.

ننهضُ في الصباحِ وننظفُ أسناننا ، ثم نجلبُ ملابسَنا من غسالِ الداخليةِ بعد أن يكونَ قد غسلها وكواها بعناية كما أوصيناه . وبعد ذلك نعاودُ الكرةَ إلى المسرحِ لمشاهدةِ أو تمثيلِ نصوصٍ أخرى من الدخان.

وبعد إسدالِ ستارِ آخر نفسٍ، هنا تواً قد جاء موعدُ الحمامِ. فقد كان للحمامِ بعد سيجارةِ الدخانِ لا يضاهيه في اللذةِ عندنا إلا متعة ضرب موعدٍ مع الحبيبة!. ثم نذهب إلى الغرفة لنرتدي ملابسنا بشرط أن تُعادل في انسجام ألوانِها ما تتمخض عنهُ اللحظةُ من مزاج.

ومِن ثم ندخلُ الجامعةَ بزهوِ الأبطالِ العائدين من حربِ التحريرِ!، بعد أن نكون قد وضعنا من العطرِ ما يكفى ليوقظُ أنثى من سباتِ الكبرياءِ وينتزعُ منها إذن الدخول.

■ ■ ■ ■

قد ندخل المحاضرات أو نلغيها حسب المزاج. وغالباً ما يكون إلغاؤها هو الخيارُ لنذهبُ إلى كليةِ العلومِ المشهورةِ بطالباتِها الجميلاتِ من الطبقةِ البرجوازية، ويُصنفنّ أنهن أجمل طالباتِ الجامعة.

نجلسُ تحت إحدى الأشجارِ، ونطلب من »صيامة« ، وهى

أفضلُ من تصنعُ القهوةَ في الجامعةِ كويين من القهوةِ بسكرٍ خفيف. ثم ننفجرُ بالتعليقِ على مؤخراتِ وشفاهِ الفتيات، وشكل الميكب حين يمرُرنّ من أمامنا أو نلمحهُنّ يتبادلنّ أطراف الحديثِ.

كنا نتجددُ مع كلِ سيجارةِ دخان، ولا نملُ بعضنا. لنا لغتُنا الخاصة التي شكلنا شفراتَها ورموزَها من تفاصيلٍ مُوغلةٍ في الخصوصيةِ، نضحكُ في أشياءٍ صغيرةٍ أو تعاليقٍ يعتبرها غيرُنا ليست ذا معنى. ونضحكُ لجهلهِ ونضحكُ لضحكنِا .. وهكذا !

نقضي نصفِ يومنا بين الضحكِ والتعاليقِ ومُجالسة الفتيات، وشرابِ القهوةِ والدخانِ. ثم نذهبُ إلى الصالونِ لنبدأ نصفَ يومنا العملى !.

ثم وبعد أن جمعنا ما يكفي من المالِ وأثناء طريقنا إلى سوبا. أخذ أحمدُ يحكى لي ونحن داخلِ الحافلةِ عن طالبٍ جديدٍ انتسب إلى الكلية، وأنه يعانى من حالةٍ عجيبةٍ قد حكى لهُ عنها، ووثق فيه من دون الطلابِ.

فسألتهُ مستفسراً:

– وما هذه؟!.

أجابني :

- إنهُ يا صاحبي يمارسُ العادةَ السريةِ ثلاث أو أربع مراتٍ يومياً، وفى أي مكانٍ، حدث ومارسها في المسجدِ ذات مرة، تصور؟!.

أصابني ذلك بحالةِ ذهولٍ، فقلتُ له:

- معقول!؟.

واصل أحمد في حماسٍ:

- والده مهندس بترولٍ في المملكةِ العربيةِ السعودية، أرسلهُ ليدرس الجامعةَ بالقبولِ الخاصِ، أي بالمالِ. وهذه هي المرةُ الثانيةُ التي يأتي فيها إلى السودانِ وأخبرني أنه لم يمس امرأةً قط في حياتهِ.

شطح ذهني بعيداً.. تخيلتُ شاباً في مقتبلِ العمرِ داخلَ الحمامِ يفرُك صابونةً في يدهِ حد اللِزوجةِ، ثم يمسك عضوهُ بكفهِ المتصوبنةِ ويُحركها جيئةً وذهاباً عليهِ إلى أن يقذف.

تسبحُ يومياً بين أناملهِ ملايينُ الكائناتِ المنويةِ، في سائلٍ مزيج هو من ماءِ الاستمنانِ وفقاعِ الصابون!

رجلٌ ينكحُ يدهُ برغمِ ملايين النساءِ لم يقتحمْ عضوهُ مستودعَ

أسرارِ امرأةٍ -قط- على سريرٍ وهيطٍ.. خارج المخيال !.

ملايين مثلهُ في مجتمعاتِ الهدرِ الإنساني قد استعاضوا بمخيلتِهم عن أبسطِ حقوقهم الإنسانية. سرت في جسدي قشعريرةٌ، قبل أن يقطع أحمد أحبولة أفكاري قائلاً:

- تخيل يا صديقي أن أكثر من ثمانين في المئةِ من المغتربين السودانيين يعيشون في المملكةِ العربية السعودية ودُولِ الخليج. تصور كم من الأفرادِ الذين لديهم عاهاتٌ جنسيةٍ أُنتجوا هناك؟. ولا سيما المملكة العربية السعودية هي الدولة الأولى في الشذوذ الجنسي في العالم، نتيجة للفصل بين الجنسين في المؤسسات التعليميةِ والحياة الاجتماعيةِ العامة. إضافة إلى الخطابات الدينية السلفية، وطبيعة النظام التعليمي والتربوي!.

- الكبتُ .. مصنعُ الجنوحِ!.

قلتُ له هذا وأنا أُومئ برأسي، مُقتبساً ومُعدلاً لمقولة ميشيل فوكو: »السجون هي مصنع الجنوح، والجنوح هو المادة الخام للخطابات التأديبية« !.

ابتسم ابتسامةً نصفُها تهكُم، وصمت.

كنا هنا قد وصلت بنا الحافلةُ إلى سوبا الأراضي، وكان علينا

أن ننزل عند أقرب نقطةٍ ل»رئاسة اللواء« . وهى منطقةٌ تقع في قلبِ سوبا ، ومن اسمها تتضح بنيتها الدلاليةِ المزدوجةِ. فهي أخطرُ المناطق هناك، ومستودعٌ للممنوعاتِ من جنسٍ، وخمور بلديةٍ ومستوردة، ودخان.

إن مروجي ومعلمي الدخانِ من الجنسينِ يعرضون بضاعتِهم في الشارعِ علناً. وينادون عليك بمفرداتٍ خاصة مثل يا حبة، يا معلم، يا أصلى ويا أبو الشبابِ وغيرها .

معظمُهم عساكر في مكافحةِ المخدراتِ، وهذا يمنحهُم حصانةً ضد الحكومةِ ذاتها بذريعة العمل. ولذا هم يطلقون على أنفسهم الحكومة.

اتجهنا بعد نزولُنا إلى منزل جمايكا وهو أكبر تاجر للمخدرات هناك. يأتي بكل أنواع الدخان وأجودها من مصدرِها في غربِ السودانِ مباشرة. وهو الذى يوزعُ للمروجين الأصغر منه، وبدورهم يوزعون إلى المعلمين الأصغر، وهؤلاء يبيعون بالقطاعي للأفراد الكيِّفين.

كان قد أرهق شعبةَ مكافحة المخدراتِ في وزارة الداخلية. وذلك كلما أُلقيّ القبض عليه، حُكم عليه بالبراءة وخرج نتيجةً لحنكتهِ ولعلاقاتهِ داخل الوزارةِ ذاتها .

فجندت له الحكومةُ أحد الضباط يدعى عباس ريكس والذى نال شهرةً واسعةً بعد أن استطاع القبض عليه متلبساً وحُكم عليه بعشرين عاماً!. استلمت زوجتهُ ميرى العمل من بعدهُ وكانت لا تقل عنهُ براعةً وخلسة. تعرفنا لكثرة تكرارنا عليها، وتؤثرنا فتجود علينا بالقطاعي من دون زبائِنها!.

دخلنا عليها في بيتِها المصُونِ، وكانت جالسةً على عنقريبٍ[1] داخل قُطيتِها في فناءِ بيتِها الواسع.

ابتسمت عند رؤيتِنا فظهرت قواطعُها العليا المخلوعة. شاطرناها الابتسام ثم بادر أحمد القول بعربي جوبا:

- ميرى إزيو ..؟.

أجابت:

- ميرى كويس، إنتو وينو؟.

أجابها أحمد:

- والله مشاغل بس يا ميرى.. عليك الله الحقينا برأس من أُمو؟.

وكان معنى ذلك أن تبيعنا رأس دخان وهو أكبر القطع،

---

١) العنقريب: هو سرير من الخشب قصير الأرجل، يُجلد بالجلدِ أو النايلون.

ويكون طوله بين عشرة إلى خمسة عشرٍ سنتمتراً. ومن أمو إشارة إلى أن يكون حديث التلبيك والتلبيك هو العمليةُ التي يُخلطُ بها صفقُ شجرةِ الدخانِ بالموزِ أو غيره ليُعطى شكلهُ المعروف.

ففي العامية السودانية بصفة عامة، وعربي جوبا بصفةٍ خاصة تُقلب بعض الأحرفِ للمفرداتِ في اللغة العربية، فتلفظ مثل أمهُ أمو دلالة على الأصالة.

صاحت ميرى على إحدى عاملاتها وطلبت منها أن تعطينا رأس دخان جيد، فجلبتهُ لنا وناولناها النقود شاكرين ثم غادرنا.

كان الدخانُ غالياً جداً، وخصوصاً بالنسبة لميزانية طلبة. كنا أحياناً نقتطعُ من ميزانيةِ الكتبِ والمذكراتِ لنشتريه. ما يكون له انعكاساتٌ سيئة في تحصيلنا الأكاديمي. وأحياناً أخرى نجازفهُ من الكيِفيِّن الذين نعرفهم أو بعض المعلمين من لهم علاقة جيدة بنا.

اتجهنا بعد ميرى إلى منزلِ العرقي، والذى كنا نعرف صاحبتهُ التنينة أيضاً. دخلنا عليها وجدناها تُقطع مُلوخية بالمفرمةِ على صينية ألمونيوم.

سلمنا عليها وطلبنا منها قارورتين من عرقي بِكر. أخذناهما ثم اتجهنا إلى غايتنا بيت علوية للدعارة ونحن مُترعان بالاشتهاء.

كان بيت علوية في أحد أطراف رئاسةِ اللواء، ويتطلب مشواراً قصيراً بالأرجل من بيت العرقي. طول السكة كان أحمد يُكلمني عن علويةِ المعرصة (٢) وهي مُديرة بيت الدعارة. إذ كيف أنها طردت حليمة وهي إحدى الداعرات التي تعمل عندها بسبب زبون اتهمها بسرقتهِ بينما كان نائماً وهو سكران!.

ثم فجأة، خطرت في عقلي فكرةٌ مجنونةٌ، قاطعتهُ صارخاً:

وليد!.

خرج اسمهُ مصحوباً بطرقعةِ أصبعين، وإشارة بالسبابةِ إلى الأمام.

سألني أحمد مستغرباً:

- من وليد؟!.

أجبتهُ:

- ذلك الطالب الجديد في الكلية، الذي حدثتني عنه.

---

٢) معرصة: قوادة.

- وما به؟!.

قلتُ كمن يخاطب نفسه:

- يا إلهى .. لماذا لم نُفكر في هذا؟. إن صاحبكَ وليد يا صديقي مريضٌ بالعادةِ السرية، ولم يمارس الجنس في حياته قط، ونحن نملك العلاج لذلك، بيد أننا مريضون بالدخانِ والنسوان ويملك هو الحل لذلك أيضاً.

قال بعد شيء من الصمت، وكأن الفكرة بدأت بالاختمار في عقله:

- يعنى؟!.

لم أوضح له ما أرمي إليه. كنا قد وصلنا بيت علوية. دفعنا كعادتنا باب بيتها المصنوع من الصفيح ثم دخلنا وكأننا رجال هذا البيت الوحيدين!.

صرخت علوية حين رأتنا بصوتها الأنثوي الحاد من تحت شجرة اللالوية حيث كانت تُمشط لانتصار شعرها:

- الليله زارنا النبى الخضر!.

ابتسمت بتهكم ثم رددتُ لها قائلاً:

- الله ماضراك .. يا أم جعبات [٣]!.

جـررّت ضـحـكتـهـا المدوّية تلك، والتي تـتكون من أربع «هاآت» تخرج جميعاً في زفرةٍ واحدة. بيد أن الرابعة مصحوبة بخمسين علامة جرّ. يتخلل إيقاعها حركة اهتزاز للكتفين والرأس مع تمييل الظهر للخلف بشكل كانت تتقنه.

كانت علوية إمرأة حلبية [٣] ممتلئة الجسم في أربعينيات خريفها. يُقال إن في شبابها كانت تتمتع بجمالٍ مُلفت مازالت تحتفظ ببعضه. عملت بائعة شاي في الكثيرِ من مُدن السودان وتزوجت أكثر من خمس مرات وطُلِقت!.

خرجت مودة من جراء ضحكة علوية من إحدى الغرف للتعرف على منّ جاء. حين أبصرتنا صرخت باسمينا وركضت نحوي معانقة. فتلقيتها فاتحاً زراعيّ ودسستُ إصبعي بين فخذيها بحركة بذيئة!.

صرخت بنبرة كنت استلطفها ناطقة أووب عليّ [٤] ونازعة إصبعي من بين ردفيها بانثناءة مثيرة. كنتُ أستلطف هذه المُفردة في مثل هذه الأماكن لما أحس فيها من غوايةٍ صارخة.

---

٣) حلبية : بيضاء البشرة .

٤) أوّوب عليّ : مفردة يستخدمنها النساء السودانيات إذا حلت بهنّ مُصيبة أو أبدينّ عن اندهاشهنّ من أمرٍ ما.

مودة كانت ألطف وأجمل الداعرات عند علوية. كُنتُ أفضلها على الآخريات وذلك لاهتمامها بذاتها في حضرتي. كانت تَتَكَبْرَتْ [٥] لي وكأنها عروس يوم دخلتها . تقعد على حفرةِ الدخان مدة طويلة من الزمن، وتدلك جسدها بالدلكةِ [٦] حتى يصفر، وتزيل ما نبت من شعرِها بالحلاوةِ المصنوعة محلياً من السكر و الماء والليمون خصيصاً لهذا الغرض، ثم تضع من الخُمرةِ ما تكفي رائحتها من بلوغ أوج الفحولة في لحظات.

كنتُ أشعر في مكانٍ ما أنها تحبني، وأخبرني أحمد أنها في ذات يومٍ قد اعترفت له بذلك.

ربما لأني أغدق عليها بالكثير، وأعطف عليها لما لاقتهُ من أهوال الحرب في دارفور وفقدانها جميع أهلها. جاءت الخرطوم باحثة عن عمل فتلقفتها علوية لما تتمتع به من جمال وحوجةٍ، فتكفلت بإعدادها داعرة من الدرجة الأولى.

كان لدى علوية أربع داعرات رمت بهنّ المآسي في حضنها، ولكل واحدة منهنّ قصة تبكيك أو تضحكك، أو تبكيك

---

٥) الخُمرة : عطر شعبي نسائي مثير جنسياً .

٦) الدلِكةُ : مادة يدلُكنها النساء السودانيات على أجسادِهنّ لتُصبح أكثر نعومةً ونضارةً، ويفعلنها للعريس أيضاً !.

وتضحكك في الآن عينه!.

مثل انتصار التي قتل أبوها أمها فسجن وأُعْدِم، أصبحت مسؤولةً عن أخويها الصغيرين وهي لم تبلغ السابعة عشرة! انفض الجميع من حولها، خرجت تبحث عن عمل فرجعت خاوية اليدين، مات أخوها الأول من جراء الملاريا ولحق به الثاني عن إثر درن، ثم انتهى بها المطاف إلى حضن علوية التي تتكفل بكل أنثى ضاق بها صدر الوطن.

والثانية هي أميمة، ولها قصة طريفة حيث انفصلت عن زوجها بعدما ضبطتهُ يخونها مع إحدى الجارات. عملت بائعة شاي في المحطةِ الوسطى بحري. لا تبتغي غير عيشةٍ نظيفة ولقمة حلال، اشتهرت باستقامتها بين الزبائن ما دفع أحد زبائنها وهو صاحب البنشرِ في الشارع المقابل لها إلى التقدم للزواج منها.

وافقت على الزواج منه عسى أن تكون لحيتهُ دليل عفةِ وتقوى، ولم يمض شهران على الزواج حتى ضبطته هو الآخر يخونها مع بائعة شاي كانت تعرفها، انفصلت عنه وقررت ممارسة الدعارة انتقاماً من زوجيها السابقين.

كنتُ أعذُرها في مكانٍ ما، فبعض الجراحِ قد تُنسى وبعضها

نتأففُ حتى من ذكراها، وأخرى لفِرط ما أحببنا مرتكبيها تدفعنا إلى تعذيب ذواتنا بشكلٍ موغل في المازوشية. فالخيانة هي الوجعُ الوحيد الذى لا تخففه البتة.. كبسولة اعتذار!.

كان منزل علوية يتكون من ثلاث غرف من الجالوص، إحدى الغرف خاصة بها وحدها لا تسمح لبناتها باستخدامها مع الزبائن. وغرفتين ملتصقتين تستخدمهما بناتها مع الزبائن يفتحان على فناء كبير به راكوبة [٧] في أحد زواياه وشجرة لالوبة وارفة الظل، يجلسنّ عادةً تحتها يمشطنّ شعورهنّ ويتبادلنّ النميمة حول الزبائن.

جلسنا في الراكوبة وأخرج أحمد قارورتي العرقي من تحت قميصهِ حيث كان يضعها بين بطنهِ والحزام، ثم وضعهما تحت السرير. جاءت مودة لنا بماء الشراب من الزير في إحدى زوايا الراكوبة وجاءت معها أميمة التي سلمت علينا بحفاوة، ثم انضمت إلينا علوية وانتصار وهكذا اكتملت القعدة.

لم نحاول أن نسأل عن حليمة لمعرفتنا أن علوية قد طردتها بسبب أحد الزبائن، علاوةً على أننا لم نكن نرغب فى تعكيرِ صفاء القعدة، خصوصاً أنه لم يكن هناك من أحد ليشاركنا

---

٧) الراكوبة: عريشة من الحصير أو القش.

أربع نساء!

ناولني أحمد كأس عرقي تجرعته بسرعة حتى أخفف من مرارته في حلقي، ثم مددتُ ورق البرنسيسِ والدخان صوب علوية قائلاً لها:

- متعينا يا ست البيت.

قالت مغتبطة بعد رؤيتها العرقي والدخان اللذين جلبناهما معنا:

- سجمي[8] أنتوا الليلة قاصدين تكسروا لى سرايري ولا شنو؟.

وتلك إشارة منها إلى أننا سنمارس اليوم من الجنس ما يكفى لكسر الأسرَةِ، ثم واصلت بعد أن اشتممت السيجارة:

- دي سجارة محتاجة بخور تيمان يا إنتصار.

هذه دعوة لإنتصار أن تحضر بخور التيمان حتى يختلط دخانهُ بدخان السيجارة فلا يعرف مكانها ويزاحمنا فيها أحد. وهذه كناية على أن السيجارة أعجبتها.

تمدد أحمد على العنقريب الذى كان جالساً عليه، ثم انقلب

---

(8) سجمي: مُفردة تستخدمها النساء السودانيات تدل على الاندهاش.

قاصداً إلى جهةِ اليمين حد التصاق نصفهُ الأسفل بمؤخرة أميمة التي كانت تجلس جواره. التفتت نحوه وضربته على فخذهِ برفق، ثم قالت له وهى تُسدل عينيها:

- يعني مشتاق لي ولا شنو؟!.

أجابها وبابتسامة ماكرةً على فمهِ:

- يعني ما عارفة؟

صمتت بالعة استفهامها، ومُمنية نفسها بما سيلي.

كان من طقوس سيجارة الدخان المُتعارف عليها أن تدور بين أفراد القعدة من جهة اليمين، يأخذ كل فردٍ نفسين أو ثلاثة ثم يناولها للذي يليه وهكذا.

كانت سجارتنا قد أخذت دورتين، وبما أنها جيدة كانت دورتان يكفيان تماماً للخروج من ذاكرة الدولة والدخول فى ذاكرة الدخان.

ضممتُ مودة التي بدت أجمل مما كانت بيدي اليمنى قائلاً لها:

- الليلة عايزك تدلكيني يا مودة.

قالت وهى تضع قبلة على خدي:

- ليك عيوني يا أبو الرجال.

كان هنا المساء قد حل وأسدل ستار نعاسه، وبان على الأفقِ هلال أول أبريل، قالت إنتصار وهى ترفع يدها مُشيرةً إلى الأفق:

- شوفو الهلال؟.

رد أحمد بسرعة:

- هلال بن رباح!.

صرخنا في وقت واحد:

- هاييي ي يكا أأأأ، ثم انفجرنا ضاحكين.

"هاييى يكا" صيغة كنا نُزاولها إذا استبدل شخص بسرعة مفردة نطق بها آخر بمفردة في جملة معروفة، بعد حذف الأصلية التي تشبهها في النطقِ مثل هِلال وبِلال، وكان أحمد يُجيد مثل هذا القلب.

- الله يقتلك يا أحمد!.

بهذا نطقت أميمة ضاحكة ومبدية إعجابها بأحمد. ففي هذه الجلسات يكون الدعاء لك بالموت إحدى صِيغ الإعجاب.

قالت علوية بملامح اشمئزاز وهى تنفث الدخان:

- بالمناسبة .. امبارح جا زبون ما مطهر!.

وضعت مودة يدها على صدرها ثم قالت باندهاش:

- سجمى!.

قالت إنتصار ودموع عينيها تجرى من الضحك:

- يعني أغلف.

تذكرتُ فجأةً وأنا أُمعِن النظر فى إنتصار مقولة إن كان بإمكاننا أن نكون أفضل الأفارقة ولكن اخترنا أن نكون أسوأ العرب!.

ذلك أن إنتصار تبدو أجمل من أميمة، ولنحول جسدها لم يكن الزبائن يرغبونها مثل أميمة الشايقية ذات القوام الفارع والجسم الممتلئ . ولذلك كانت تقبل مبيت الليلة مع الزبونِ بأقل ما تتقاضاه أميمة في الممارسة الواحدة.

بدأت أفكر أن معايير الجمال في السودان أصبحت نفس المعايير العربية، تكون الأنثى أشهى كلما طال قوامها وامتلأت أردافها وتضخم النهدان. أما هيفاء القامة يُنظر إليها كنزير شؤم تجلب الفقر، وخصوصاً إذا كانت نحيلة الساقين يُطلق عليها الفقُر.

وبذا تمكنت الثقافة العربية منا حد النخاع . بتنا نُبصر العالم بعيون عربية، نسمى مدننا بأسماء عربية، نصنف نساءنا من خلال الذاكرة العربية.

وكيف لا يكون ذلك، وكل الحكومات التي مرت على تاريخنا موشحة بوشاح الخيبات العربية. وكيف لا يكون ذلك وما ينيف عن نصف قرن من الزمان يحكمنا أناسٌ متخمون بما اقتاتوا من موائد مآدب الثقافة العربية.

خمسون عاماً ويزيد تُغسل ذاكرة شعبنا كل يوم في ماءِ العروبة المقدس، أنسونا حضارتنا التي غرست جذُورها منذ خمسة آلاف عام قبل أن تضع السيدة مريم ابنها المسيح!. لقنونا أسماء أجدادنا الوافدين من جزيرة العرب ممتطين نوقهم، ولم يعطونا اسماً واحداً لجداتنا اللاتي سكنّ ضفاف النيل لآلاف السنين.

قطع شرودي فجأة صوت أحمد وهو يذكر اسمي قائلاً:

- ياصاحبي الزمن جرى.

فهمت ما يُلمح إليه فقلت له:

- صاح خلينا نبدأ.

أخذ أميمة وذهب بها صوب الغرفة وهو يترنح، طلبتُ من علوية أن تحتفظ لنا بالدخان والعرقي الذى شربنا منه قارورة واحدة. ثم نهضت ومعي مودة واضعاً يدى على خصرِها متجهين صوب غرفتنا،

أُقبلها في خدِها تارةً وفى فمِها تارة أخرى.

(٣)

كانت ليلتُنا في بيتِ علوية كما خططنا لها أن تكون، قضيناها بين أفخاذ نساء تعودت أن تُرفع فوق أكتاف الرجال!.

مارسنا الجنس بكل ما تشحذ به ذاكرتنا من الفسقِ، فكنّ هنّ حيناً، وأحياناً أخرى نتخيلهن نساء أُخريات أقلقنا مضاجعنا دون أن نصل إليهنّ. فالخيالُ هو حِيلةُ الدماغِ الذكيةِ لبلوغِ ما عجزت عنه أيادينا!.

بعد الممارسة الأولى تكون قد أصبحت والياً في إحدى إمارات بني أمية يحطنّ بك الجواري، وبعد الثانية تكون هارون الرشيد، وترفعك الثالثة إلى قامة إله الذكورة ذاته!.

في صبيحة اليوم التالي غادرنا بيت علوية بعدما تناولنا معهنّ شاي وسيجارة الصباح التي يكون لها دائما فعل مُختلف، ثم اتجهنا إلى طويلة بائعة الشاي في السوق بعدما أخذنا ما تبقى لنا من دخانٍ لتناول القهوة ولأخبر أحمد ما دبت على التفكيرِ فيه بخصوص وليد.

كان مكان طويلة هذا الصباح هادئا كمزاجِنا، فلم يكن فيه الكثير من الزبائن كالمعتاد، دخلنا رافعين لها كفينا مُحيِين، ردت بإيماءة من رأسها مقرونة بابتسامتها تلك وجلسنا على بنبرين في الزاوية الأكثر هدوءا.

أحضرت لنا إحدى بناتها الماء البارد ووضعتهُ على الطاولة القصيرة أمامنا.

استأنف أحمد الموضوع فسألني :

- ما الذى كنت ستقوله لي بخصوص وليد؟.

أجبته:

- كنت أفكر أن نحضر هذا الوليد إلى هنا.

سألني باندهاش:

- ماذا ؟!.

أدركتُ من استفهامِه الاستنكاري هذا أنهُ لم تخطر له هذه الفكرة كما توقعت، فقررتُ أن أشرحها له من أساسِها فقلت له:

- اسمع يا صاحبي.. إن الأشخاص الذين لم يمارسوا الجنس بتاتاً لديهم الكثير من العقد، إنهم يشعرون في مكانٍ ما

بنقصهم الكياني، وذلك لفقدهم الاعتراف بكيانهم الذاتي الذى لا يتحقق إلا من خلال الارتباط بالآخر في علاقة جنسية. فالحوجة الجنسية ليست مجرد نزوة بيولوجية تهدف إلى الإشباع بمعزل عن أي شيء.. بل هي طلب ورغبة.

الطلب يُعبر عن حالة النقص الكياني عند الشخص المفرد ما يدفعه إلى العلاقة مع الآخر لإكماله. إن اكتمال الكيان النفسي مشروط باعتراف الآخر به، ولا أظن أنك ستخبرني أن هذا الوليد يجد الاعتراف من خلال يده عندما يمارس العادة السرية.

سألني كمن أدرك ما أرمى إليه:

- تقصد..

قال هذه المفردة ولم يضف شيئا غير ابتسامة كُنتُ أعرف كُنهها جيداً . وقبل أن يُضيف شيئا كانت طويلة قد أحضرت القهوة ولم يكن لجسدها فعله هذه المرة، بعد أن قضينا بالأمس ليلة حمراء داكنة استنزفت ما كان فينا من انتصاب الذاكرة.

وضعت لنا صينية القهوة مبتسمة ثم غادرت. واصلت كلامي حتى أضعهُ في الصورةِ بشكل كامل:

- إذا أحضرنا وليد إلى بيت علوية نكون قد منحناه فرصة

اكتشاف رجولته بعيداً عن وهم الماءِ والصابون. وذلك بأن يظفُر بامرأة حقيقية مُتمرسة تستطيع أن تجعل منه رجلاً حقيقياً على سرير لم يعرف عنه شيئا إلا في المخيلة وبما..

قاطعني بحماس كمن وجد ضالته:

- وبما أن والده مهندس بترول في المملكة العربية السعودية ووضعه المادي ممتاز، نكون قد وفرنا حق العرقي والدخان دون أن نذهب إلى الصالون ونحلق رؤوس الزبائن التي لا تستحق حتى الانحناء عليها.

- بالضبط المصلحة مشتركة.

أومأ برأسه موافقاً، ثم توقف فجأةً عن وضع السكر في الفنجان الذى أمامه ونظر إليّ بتفحُص ثم قال مستدركاً:

- ولكن.. مَنْ مِن البنات ترشحها لذلك؟.

أجبته:

- إنتصار، أخبرتها بذلك سلفاً بالأمسِ وقد وافقت.

رفع كفهُ الشمال إلى الأعلى فلاقيتها بكفى حتى أصدرتا صوت صفقة.. كان هذا الطقس نُزاوله إذ ما اتفقنا أن نفعل شيئا ويعنى قد اتفقنا.

احتسينا قهوتنا بهدوء، وتناقشنا في الخطوطِ العريضةِ. ثم اتفقنا أن نناقش التفاصيل في طريق العودة إلى الخرطوم. وضع أحمد حق القهوة زائداً بقشيش على الصينية، ثم خرجنا قاصدين الجامعة لإنجاز ما عزمنا القيام به.

وصلنا الجامعة بعد الظهر وكان هذا الوقت نهاية اليوم الدراسي الرسمي، اتصل أحمد بوليد الذى أخبرهُ أنه في كافتيريا الكلية وطلب منه المجيء. ذهب إليه أحمد وقصدت أنا إحدى الكافتريات الرخيصة لتناول سندويتش طعمية إلى أن يتصل بي أحمد كما اتفقنا.

طلبت الساندويتش ثم ذهبت إلى الطاهي وناولته الماركة المميزة لطلبي، فمد لي بسرعة واحدا من السندويتشات المُعدة سلفا داخل أكياس النايلون الشفافةِ البيضاء. فقد كان مشغولاً هو بطهى البيرقر المشوي الذى يقدم ساخناً لإحدى الطالبات التي يبدو من زيها أنها مُقتدرة.

جلستُ على أحد البينشات أتذوق طعم الطعمية الذى يتكرر عليَ يومياً طيلة الثلاث سنوات في الجامعة، حتى أصبح من لوازم يومي، تماماً كتنظيف أسناني عند الصباح.

الطعمية والبوش هما وجبتا الطلاب المقدستين في الجامعة،

ليس لطيب طعم ولكن لعجز الجيوب عن تلبية ما كان في النفوس مرغوبا.

■ ■ ■ ■

إن طلاب الجامعات السودانية هم أكثر الطلاب بؤساً في العالم، إنهم يأكلون نفس الوجبة يومياً التي قد تكون طعمية أو بوش وهو ماء الفول المرشوش على قطع الخبز، ثم يُضاف إليه بعض الطماطم أو البصل والملح ثم يحرك ويقلب بواسطة الكف أو يُدفس عن طريق زجاجة مشروب غازي فارغة!.

وبعد ذلك يُوضع عليه زيت الفول أو السمسم ويصبح وجبة كما يُقال في المثل الشعبي المصري "تاكل صوابعك وراها!".

يأكلها الطلاب يومياً طيلة فترة دراستهم في الجامعة عن طريق الشيرين، وهو أن يساهم كل طالب بما يملك من نقود لإنجاز صحن البوش. ولأنهم غالبا ما يكونون من دفعة واحدة يذهبون إلى قاعة المحاضرات التي توقفت مراوحها عن الدوران تضامناً مع فصل الصيف المزري الذى تصل حرارته إلى٤٧ درجة مئوية. وهنا يكون قد فعل البوش فعلته برؤوسهم، فمنهم من نام ومنهم من حاول أن يستمع إلى المُحاضِر فأصابه صداع نصفي وطش من منتصف المحاضرة.

يتكرر هذا السناريو يومياً إلى ما يقارب نصف قرن من الزمان. هذا علاوةً على أن الطلاب يدرسون تاريخ المواد وليس المواد ذاتها. فآخر مرجع في المكتبة المركزية لجامعة الخرطوم أُنتج في منتصف القرن الماضي!.

قطع تفكيري صوت هاتفي الجوال في جيبي، كان هذا أحمد طلب مني الحضور إلى كافتيريا كلية الهندسة ليعرفني على صديقه الجديد وليد.

كان ذلك جزءا من خطتنا أن يحكى له أحمد عني حتى يرغب في معرفتي ومن مكالمته هذه أيقنت أن الخطة تسير على ما يرام. ذهبتُ إليهم في الكليةِ وقصدتُ الكافتيريا، وقفت على بابها أتجول بناظري بحثاً عنهم. لمحت أحمد يرفع لي يده وبرفقته شاب في منتصف العشرينات به وسامة ظاهرة، وتبدو عليه سمات الراحةِ من أناقتهِ المفرطةِ.

هذا وليد إذن. مظهره يدل على ما في جيبهِ، اتجهت صوبهما فوقف الاثنان لتحيتي، سلم عليّ أحمد باسمي وكأنه لم يرنى منذ مدة!. عرفني على وليد وعرف وليد إليّ قائلاً:

- هذا وليد طالب جديد في الكلية.

- أهلاً وليد، مددت له يدي مصافحاً تلقاها بابتسامة لطيفة

مع انحناءة قليلة إلى الأمام.

كانت يده أكثر قضاضة من أيدي طلاب الأسر البرجوازية في الجامعة، وملامحه عن قرب أقرب إلى الأنثى منها إلى الرجلِ.

طويل القامة ونحيل، عيناه واسعتان نقاء بياضها يعكس سواد حدقاتها. كما أن فتوح لون بشرتهِ يعكس قتامة شعرهِ الأسود الناعم.

جلسنا ثلاثتنا حول الطاولة التي كان بها بقايا هامبرغر وعصائر طازجة، فاستنتجت أنه قد عزم أحمد على الإفطار.

سألني وليد إن كنت أرغب بشيء. أخبرته أنيّ أفضل أن نخرج إلى مكان أكثر هدوءاً فأنا أمقت صخب كافتيريا ومطاعم الجامعة . نظر وليد إلى أحمد الذى أثنى الاقتراح، ووافق هو أيضاً بشرط أن نأخذ معنا مشروبات غازية على حسابه. وافقنا وتقدمنا لهُ أنا وأحمد إلى الخارج فلحق بنا بعد شرائها.

ذهبنا إلى الميدان الشرقي في الجامعة وهو ملعب كرة قدم به نجيلة خضراء جميلة، ولهذا كانت تقام عليه الاحتفالات الكبرى في الجامعة.

وكان مشهوراً بحب الكيِّفين له لهدوئه وجمال نجيلته، إضافة إلى أنه يمثل موقعا استراتيجياً لهم لأنهُ أقرب نقطة من الجامعة إلى نفق السكة حديد الذى يتم منه إنجاز الدخان، حيث لا يفصل بينهما سوى الطريق المسفلت الذى يقود إلى كبرى الخرطوم بحري. وبالتالي لم يكن الكيِّفون يبذلون جهداً للحصول عليه ويتعاطونهُ في ذات الميدان على النجيلة، وقد كان معظمُهم طلاب الجامعة الذين استعاضوا عن بؤس أوضاعهم بسعادة وهم الدخان.

جلسنا ثلاثتنا على شكل مثلث، ووضع وليد المشروبات التي كان يحملها طول الطريق في وسطنا ، ثم افتتح أحمد الجلسة قائلاً لي:

- إن وليد يُعانِي من مشكلةٍ، وأخبرتهُ أنك قد تملك الحل.

ثم أشار لوليد بالتكلم. فقال لي وليد بعد شيء من الصمت:

- أتمنى أن تتفهني؟.

- سرك فى بئر.

قلت له هذا مع ابتسامة صغيرة حتى أشجعه، وأطمئنه أن الذى سيقوله لي سيظل دفيناً بيننا أبد الأبدين. رغم أني كنت

أعرف سلفاً ما سيقوله.

بدأ هادئاً يحكي لنا قصته بأنه وُلِد في المملكة العربية السعودية، ولم يخرج منها سوى قبل ثلاث سنوات عندما جاء في زيارة قصيرة مع أسرته إلى السودان لمدة شهرين. ثم رجعوا وهذه هي المرة الثانية التي يأتي فيها إلى السودان بعد أن أرسله والده للدراسةِ والتعرف على بلاده أكثر.

لا يعرف شيئا عن عالم النساء نتيجة للفصل بين الجنسين هناك في المؤسسات التعليمية والاجتماعية، كما أن النساء هناك لا يخرجنّ إلاّ مُنقبات وغالباً بصحبةِ مُحرم.

وفى أحد أيام مراهقته المبكرة وهو في المدرسة دعاه أحد أصدقائهِ من التلاميذ لمشاهدة فيلم عن "الثقافة الجنسية" في جهازِ الجوال. وكانت هذه أول مرة يرى فيها جهازا تناسليا لامرأة بالغة!.

اثتثارتهُ تلك المشاهد جداً حتى أنه نسخ ذلك الفيلم في جهازه الخاص، ثم ذهب إلى حمام المدرسة، ومارس العادة السرية وهو ينظر إلى شاشة الجوال.

أخبره صديق آخر في المدرسة بعد أن رأى الفيلم، أنه لديه العديد من هذه الأفلام التي استخرجها من الإنترنت ثم أخبره

بنوع معين من الصابون به من اللزوجة ما تجعل يده أكثر شبها بمهبلِ الأنثى أثناء الممارسة. ثم أخبره آخر أن الفازلين تكون متعته أكثر من الصابون.

وهكذا ملأ ذاكرة جوالهِ بمختلف أنواع أفلام الثقافة الجنسية التي نسخ بعضها من أصدقائه في المدرسة، وأنزل بعضها من مواقع على الإنترنت. ثم غدا يمارس العادة السرية يومياً ثلاث أو أربع مرات، وفى أي مكان تتوفر له فيه الخصوصية . غالباً في الحمام ومرة في غرفة نومه وأحياناً أخرى في الصالون. فقط يفتح جواله ويضع سماعة الأذن حتى لا ينتبه إليه أحد، مستعملاً الصابون وأحيانا الفازلين.

أخذ يتحول هدوؤه إلى حدة تدرجياً كلما تكلم عن التفاصيل المتعلقة بطرق ممارسةِ العادة، وكان يتحاشى النظر في أعيننا أنا وأحمد. يحكى وعيناه في الأفقِ وبصره في الذاكرة.

فكرت في أن هذه الحِدة ربما تكون هوامية نابعة من مشاعر ذنب لا واعية، وخصوصاً يبدو أنه تربى تربية دينية صارمة ولا سيما في المملكة العربية السعودية.

لم أبد له اندهاشا ، كنتُ أومئ برأسي تفهما كي يواصل، صمت لبرهة ثم واصل قائلاً:

- كان أصدقائي يمارسون اللواط مع بعضهم بالتبادل، جربت ذلك مرة واحدة مع أحد السعوديين ولم أكررها ثانية لشعوري أن هذا لا يرتضيه الله ولا رسوله!.

نظر إلى أسفل وأدمعت عيناه، وضعتُ كفي على كتفه مطمئناً:

- لا تقلق يا وليد سنحل هذه القضية.

انفجر باكياً ثم قال:

- إنى فعلت ذلك داخل المسجد ذاته .. تصور؟!.

نظر إليّ أحمد فلم أعره اهتماماً حتى لا يشعر وليد بالحرجِ. تعاطفتُ معه حقيقةً واكتفيتُ بإخبارهِ أن يثق أننا سنحاول مساعدته في أقرب فرصة. التفت نحوي بسرعة وحدق فيّ كمن يتأملني ثم قال:

- أريد أن يكون ذلك غداً ...إذا أمكن؟.

وضع كفه على يدي وضغط عليها ثم أضاف وهو يُمعن النظر في عيني:

- أرجوك.

- جيد .. جيد.

كانت هاتان المفردتان كل ما استطعت قوله، ثم نظرت إليّ أحمد كمن يبحث عن مخرج فأدركني أحمد سائلاً إياه:

- ألم يخفف الاختلاط هنا في الجامعةِ من وطأتها يا وليد؟.

ابتسم بتهكم ثم قال:

- لا أكاد أبصر صدر أنثى في مُدرج الجامعة أو مؤخرتها إلا وأهرع إلى الحمام لممارستِها.

في هذا الأثناء كان المغيب قد حل علينا يمارس عادة نعاسه. وفى مثل هذا الوقت يتشكك الحرس الجامعي في كل الطلاب المتواجدين في الميدان الشرقي. خصوصاً إن كانوا مجموعات صنفهم من الكيِّفين فيقوم بمراقبتهم للانقضاض عليهم.

وإن كانوا طالبا وطالبة صنفهما عاشقين ينتظران الظلام ليسرقا القُبل فيزاول مهنته بمنعها بذريعة اللائحة الجامعية، وليخمد نار الحرمان التي تتأجج بداخله هو!. ولم يكن في رغبتنا -بأي حال- الزج بشاب ليّن العريكة كوليد في مثل هذه الاشتباهات منذ لقائنا الأول.

أخبرنا وليد أن يطمئن وأننا عازمان على مساعدته وغالباً سنتصل به اليوم ليلاً.

وقفتُ أنا وأحمد ثم وليد، تبادلتُ معه أرقام الهاتف ثم ودعناه، غادر هو باتجاه البوابة الشرقية للجامعة واتجهنا نحن إلى البوابة الأخرى الأقرب إلى الداخلية.

تركنا وليد مثخنين بهول ما سمعنا، فهو حالة مرضية صريحة. تعاطفنا معه كثيراً، فقد كان كريماً ومهذباً ولم نكن نعتقد أن الأمر معه وصل إلى هذه الدرجة. طوال طريقنا إلى الداخلية لم يكلم أحدنا الآخر، اطبقت أفواهنا بما سمعت آذاننا!.

ذهب بي التفكير في كل حدبٍ وصوب. فكرتُ كم من وليد غير هذا الوليد في هذه البلاد وما شابهها حبُلت منهم مراحيضُهم لفِرط ما أودعوا فيها من كائنات منوية؟!.

ماذا كان سيقول سيغموند فرويد يا ترى لو تسنى له أن يعرف أن دولاً بحالها تُحرم قبلة بين عاشقين بنص القانون بذريعة أنها منافية للأخلاق والذوق العام؟.

إن ملايين الشباب في هذه البلاد وما شابهها هم حالات مرضية بشكلٍ أو بآخر، إن الكبت الجنسي والعاطفي له انعكاسات نفسية سيئة وكارثية وذلك لاختلال الجدلية الحاكمة للوجود الإنساني ذاتها. فلا يستطيع أي إنسان التوافق مع ذاتهِ والانسجام معها إلاَّ اذا تحقق له الإشباع الجنسي

والعاطفي المُتمثِل في اعتراف الآخر الذى يتوق إليه.

وفى مجتمعاتِنا التي يُحرم ويُجرم فيها الجنس خارج المؤسسة النمطية للزواج، وتُقمع العاطفةَ بذرائع دينية، لا يتحقق فيها بالضرورة هذا الإشباع ويظهر الاختلال بأشكالٍ مختلفة، مثل حالاتِ العُصاب والهستيريا ونوباتها المعروفة التي تُفسر في الثقافةِ الشعبيةِ أنها مس من الجانِ أو الشيطان.

وتتم محاولة معالجتها بجلساتِ الشيوخِ والزار المعروفة الأمر الذي يزيد في تأزيم المريض أكثر.

لأنهم تحت ستار الدين المصطنع وأدوا أقدس ما لدينا في مقابرِ التشريع، بتروا أعضاءنا من منابتها بساطور حداد مسلم عاش بيثرب ومات قبل أن يسمع شيئاً عن الإعلانِ العالمي لحقوقِ الإنسان.

تحت ستار الدين المصطنع كنسوا فنوننا وآدابنا، وجميع ما شحذت به قريحتنا بلحى أئمة الجوامع وقالوا هذا إثم مبين.

ففي مثلث التجريم والتحريم والتأثيم أعادوا صلب المسيح من جديد، بعدما ختنوا السيدة مريم بداعي العفةِ والذوق العام!.

وصلنا إلى داخلية السكن الطلابي، وعند البوابةِ صادفنا

أصولِيَّيَن بلحيتيهما الطويلتين، وبنطاليهما القصيران يتبادلان أطراف الحديث . قال لي أحمد بعد أن تقدمنا مسافة منهما :

- إن الفرق بيننا وبينهم بفيزياء المسافة حوالى ثلاثة أمتار، وبفيزياء المُواكبةِ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام!.

ابتسمت بسخرية فقد صدق أحمد. إذ إن هناك أُناسا معنا في هذا الكوكب الصغير ذاته، يشاركوننا تنفس الهواء نفسه، نقابلهم في الأحياءِ السكنيةِ وفى وسائلِ النقلِ وقاعاتِ الدراسة، وقد يسكنون معنا في غرفةٍ واحدة، ويأكلون معنا في المطاعم ذاتها والأكل نفسه. ولكن بيننا وبينهم ما يزيد على أربعةِ عشر قرناً من الزمان!.

أجسادهم معنا في القرنِ الواحد والعشرين، وعقولهم ما تجاوزت قط القرن الأول الهجري.

سألني أحمد قائلاً:

- كيف تُعلل توقُف وليد عن اللواطِ بدوافع دينية، وهو الآن يريد أن يمارس الجنس متجاوزاً تلك الدوافع؟!.

أجبته:

- إن أي عقلية دينية بها من التناقضات ما يكفى لتُلزم

صاحبَها أن يتنازل عن بعضِ المسلمات حتى يصل إلى نقطةِ توازن نفسية.

نظر إلى الخلف ثم سألني:

- وماذا تقول عن هؤلاء الذين لم يتنازلوا عن أي شيء وحرموا كل شيء؟

أدركتُ إلى ما يلمح فأجبته:

- هؤلاء يا صديقي الذين يشنون حرباً على خفقاتِ الحياة هم حالات مرضية في الغالبِ الأعم. إن تعصبهم وتزمتهم هو تعويض عن حرمان دفين لا واعٍ يجد آلياته الدفاعية في وهمهم بحماية مملكة الرب العليا. وبالتالي هم الفئة الناجية الموعودة بالفردوسِ السماوي العظيم، وما عداهم هم الضالون. والذين يجوز حتى إهدار دمهم في طابع تدميري سادي، وذلك لطغيان نزوة الموت على الحياةِ فيهم، وهذه في الحقيقة هي قنواتهم للتعبير عن نزوة الجنس المكبوت والمحرمة عندهم.

نظر إليّ باندهاش ثم قال مُتهكماً:

- يبدو أن مأساة وليد قد خلقت منك عالم نفس.

- أو مدمن دخان!.

كانت هذه إشارة إلى أن نذهب إلى المسرح لندخن القليل الذى بقي بحوزتنا بعد أن دخنا مع علوية وبناتها كل ما كان لدينا!.

ذهبنا خلف المسرح ولف أحمد السيجارة وناولها لي لإشعالها ثم فتحنا موضوع وليد مرة أخرى وتناقشنا عن إمكانية اصطحابه إلى سوبا الأراضي. فهو لم يخبر مثل هذه المجتمعات من قبل وكذلك تحدثنا عن إمكانيةِ توفير المال الذى نحتاج إليه فإن ليلتنا السابقة في منزل علوية استنزفت ما كان بحوزتنا من مال. وكنا أثناء نقاشنا نتحاشى فكرة طلب مال من وليد خصوصاً بعد سماع قصته وتعاطفنا معه حقيقةً.

اتفقنا بعد طولّ نقاش وبعد أن تقفلت أمامنا كل المنافذ، أن نتصل به ونكلمهُ عن طبيعة الواقع هناك وإلى الحوج إلى المال لإتمام موضوعهُ بشكل كامل.. ونترك له الخيار.

اتصل به أحمد، وكلمه بخطوط عريضة عن طبيعةِ الواقع هناك وعن الحوجة إلى المال. وافق وليد على الذهاب كما توقعنا، وقال لا تُوجد مشكلة بخصوص المال فمعه ما يكفي. اتفق معه أحمد على ملاقاتنا الساعة العاشرة صباحاً في مكانٍ معين وصفه له في الجامعة.

(٤)

قال الفيلسوف الألماني كانط مبرراً لفلسفته المثالية التي نسف فيها أعمدة الفلسفة التجريبية: "كان عليّ هدم المعرفة لأفسح المجال للإيمان"!.

تذكرتُ هذه المقولة أثناء حوارنا مع وليد، ونحن في طريقِنا إلى الموقف العام لحافلات نقل الركاب.

حيث كان يحكي لنا عن مواقفِ الجماعات السلفية في المملكة العربيةِ السعودية من وسائل الإعلام. وكيف قامت بتحريمِ مشاهدة الكثير من القنوات الفضائية والأغاني والمسلسلات. وكأنه "كان عليهم هدم الإنسان لفسح المجال لموهُومِهم عن الإيمان"!.

وصلنا الموقف العام ووقفنا على الممرِ الخاص بحافلاتِ سوبا الأراضي الذي كان مكتظاً بالركابِ ولا تُوجد حافلات، الأمر الذى جعل وليد يقترح علينا تأجير عربة تاكسي. أخبرهُ أحمد

أن عـربات التكاسي لا تذهب إلى هذه المناطق لأن سـائقـيـهـا يخـافـون علـى سيـاراتِهم مـن سـوء الشـوارع هناك وكـذلك من قطاع الطرق.

فكرتُ أننا طوال السكة لم نسأل وليد عن مقدارِ المال الذى بحوزته، إنه لا يعرف الأسعار جيداً وبما أنه اقترح سيارة تاكسي ربما كان معه مبلغ كبير من المال، وكأنّ أحمد قد عرف فيما أُفكر فسأله:

- وليد ما مقدار المال الذى معك؟.

أجابه وليد وهو يخرج من جيبه رزمة نقود من ذوات الفئة الكبيرة:

- لا أدرى بالضبط!.

اندهشنا أنا وأحمد، إن المبلغ كان كبيراً جداً متجاوزاً حتى حوجتنا. إضافةً إلى أن الأشخاص الذاهبين إلى سوبا الأراضي أو داخلها لا يحملون مثل هذا المبلغ في طريقهم. فهو يُعرضُ صاحبهُ إلى مشكلاتٍ كثيرة قد تتسبب ببساطة في قتلهِ!.

سحبتهُ من يدهِ خارج الزحمةِ حتى لا يرانا النشالون الذين يكثرون في هذه المنطقة، وأخبرته أن هذا المال قد يتسبب لنا

بالمشكلاتِ، وطلبتُ منه أن يسلمهُ لأحمد الذى قضى فترة من حياتهِ هناك، ويستطيع أن يتصرف إن حدث شيء. بدأ مقتنعا فسلم كل المال الذى لديه لأحمد.

قررنا أن نركب سيارة هايس إذ معنا من المال ما يكفي، وهى سيارة أصغر من الحافلة تكفي لنصف ركابها وكذلك أسرع. جلسنا ثلاثتنا في المقعد الأخير وامتلأت بسرعةٍ لتنطلق بنا نحو القاعِ.

وجدتها فرصة لأسأل وليد في الطريق عن أُسرته. قال إنها تُقيمُ في السعوديةِ منذ سبعةِ وعشرين عاماً!. أباه مهندس يعمل في واحدة من أكبر شركات البترولِ هناك، وله أخت واحدة تصغرهُ بخمسةِ أعوام.

جاء إلى السودان قبل ثلاثة أشهر بعد أن اقترحَ عليهِ والدهُ أن يدرس الجامعة هنا ليتعرف أكثر على السودان.

وهو الآن يقيمُ مع عمتهِ التي تسكن بمنطقة العمارات ويدرُس بالقبول الخاص في كليةِ الهندسة المدنية.

سأله أحمد إن كان يجد صعوبة في بعض المواد، وكان هنا النقاش قد انعطف إلى أكادِيمي بينهما، وكان من نصيبي الشرود بعيداً.

تساءلت إذ كيف لشخص أن يعيش سبعة وعشرين عاماً خارج وطنهِ؟. أي ما يزيد على ربعِ قرنٍ من الزمان!.

بل كيف لأبٍ يرتضى لأبنائه أن يُولدوا ولا يخطوا خطواتهم الأولى على ترابِ الوطن؟. وكيف يرضى أن ينشأوا ولم ينشدوا في طابورِ الصباحِ في المدرسة نشيد العلم؟!.

بل كيف لأب أن يرتضى ألاَّ يلعب أطفالهُ مع أطفالٍ يشبهونهم في كل شيء؟. ويختار لهم أن يكونوا مسخاً لأطفالٍ آخرين، لا لشيء فقط لقتامة لونهم. أهو حب للمال أم كرهُ للوطن؟!.

قطع شرودي طرقعة أصابع أحمد مشيراً للسائقِ بالتوقف، كنا قد وصلنا سويا. نزل أحمد ووليد ثم نزلت أنا مبتلعاً أسئلتي.

لم ننزل عند أقرب نقطةٍ لرئاسةِ اللواء كعادتِنا، وذلك لوجودِ وليد معنا. كان اتفاقي مع أحمد أن ننزل في غرفة جوكس، ثم يتركني بصحبةِ وليد ليذهب هو إلى رئاسةِ اللواء لإنجاز الدخان من ميرى والعرقي من التنينة.

لم يستطع وليد إخفاء اندهاشه وتعجبه من على ملامحِ وجههِ الوديعةِ عندما صادفنا أثناء سيرنا إلى منزلِ جوكس بعض

أطفالِ النوبةِ يلعبون عراة على الشارعِ، وقد رسم الغبارُ مع العرقِ على أجسادِهم خرائطَ لعوالمٍ مجهولة.

ضلوعهم بارزة لفرط نحولِهم، وبطونِهم منتفخة من الطوحالِ!. فهو لم ير في حياتهِ عالماً بهذا البؤسِ اللهم إلاّ في نشراتِ الأخبار!.

المنازلُ جميعُها مبنيةٌ من الجالوصِ وبشكلٍ واحد، يفتحُ بعضُها على بعضٍ، وبعضُ هذا البعضِ هو الشارع!.

الشارع الذي يتشاركونهُ كفناء، الشارع الذي يقيمون عليه احتفالاتهم ومآتمهم ورقصهم. فرح في زواج أو إنجاب طفل، احتفال لتوديعِ روح عزيزٍ قد مات في ليلة رحيله الأربعين.

كان شعارُهم "إن لم تستطع درء البؤس عنك، فتأقلم معه"!.

كان وليد لأناقتهِ وشكلهِ يلفت انتباه السكان، فقد تزين ليحتفل بيوم فض عذريته ولم يكن يدرى أنه أيضاً يفضُ عذرية ثقافته عن هذا الوطن. الوطن الذى يهربُ منه الكثيرون وجلاً، الوطن الذي يوفد إليه الكثيرون شوقاً. الوطن الذي .. ما كان في يوم وطن!.

وصلنا منزل جوكس ونادينا عليه من الخارج فلم يكن موجوداً

كعادتهِ. قفز أحمد من على الحائطِ القصيرِ وفتح لنا الباب ثم دخلنا.

كان منزل جوكس عبارة عن غرفةٍ لا يتجاوزُ عرضها مترين ولا يتجاوز طولها المتران ونصف المتر. تفتح على فناء بحجمها تقريبا، به شجرة نخيل صغيرة جدا في وسطهِ تحيط بها أزهار صباح الخير في حوض صغير حولها حفرة جوكس خصيصاً لها.

يفتح هذا الفناء على الشارع الذى هو بيت أحدهم!. ولديه في داخل غرفته سرير قصير منسوج بحبال بلاستيك مهترئة وليس فيه لحاف. يستخدمه جوكس كدولاب يضع عليه ثيابه الرثة لأنه كان ينام على الرمال المطروحة أرضاً.

دخل أحمد معنا ثم ما لبث أن غادرنا معتذراً لوليد ومطمئناً إياه أنهُ سوف يلاقينا بعد نصف ساعة.

جلستُ أرضاً وطلبتُ من وليدِ الجلوسَ على السرير، فجلس وهو يتأمل زوايا السقف التي نسج عليها العنكبوت بعض شباكه، ثم سألني مستفسراً:

- لمن هذه الغرفة؟.

أجبته:

صديق يُدعى جوكس.

نظر إليّ لمدة.. أدركت أن هذه الإجابة لم تكفه فأضفت:

- اختار جوكس هذه الغرفة ليعيش فيها بعد أن عرف أنه ابن حرام، أنجبته أمه من غير رباط شرعي مع أبيه. آثر الوحدة هنا في القاع من عيون الناس المتربصة به هناك!.

سألني وقد ساقهُ الفضولُ:

- وماذا يعمل؟.

فأجبته:

- إنه يعمل الآن في الأعمال اليدوية الخفيفة، الناس يظنونه مجنوناً ولا يكترث لهم. كان في الماضي سائق شاحنات كبيرة بين الولايات، ولكنه اعتزل هذه المهنة ونذر حياته للدخان.

كنت قد ضقت ذرعاً بهذه الأسئلة التي لا تكاد تجيب على أحدها حتى يفاجئك بآخر من إجابتك على الأول، سألني كما توقعت:

- وما الدخان؟!.

وهنا كان عليّ أن أوضح له كل شيء عنا حتى لا يتفاجأ

فيما بعد ويصدُر منه سلوك غير متوقعٍ. وكان هذا اتفاقي مع أحمد ولهذا أتينا به إلى منزل جوكس أولاً، فقلت له:

- الدخان هو الاسم الشعبي الشائع هنا للمرجوانا أو البنقو وجوكس يتعاطاه.

نطقت الاسمين المعرُوفين للدخانِ وأنا أتأملُ ملامحهُ لأعرف ردة فعله. قال دون أن يندهش:

- ما أعرفهُ عن المارجوانا أو البنقو أنه يُتلِف خلايا المخ.

قلتُ له وأنا أشعلُ سيجارة عادية :

- ربما.. ما أريدك أن تعرفه أننا أيضاً نتعاطاه!.

نظر إليّ باستغراب ولم يبد اندهاشاً كما توقعت، وقبل أن يقول شيئاً رنّ هاتفي الجوال بمكالمة من أحمد.

أخبرني أنه حَمّل [٩] المزاج وهو الآن في طريقهِ إلى بيت علوية، وكان معنى ذلك أن نُلاقيه هناك.

نهضتُ وقلتُ لوليد إن علينا الذهاب. خرج هو وبقيتُ أنا بالداخلِ، قفلتُ الباب ثم قفزت من على الحائط واصطحبت وليد إلى بيت علوية.

---

٩) التحميل : هو المصطلح الذى يطلقهُ الكِيّفون لجلب العرقي أو الدخان.

لم يكن الطريقُ إلى بيتِ علوية طويلاً من غرفةِ جوكس، وقبل أن نصل وجدنا أحمد ينتظرنا على الطريق تحت شجرة نيمة. سرنا ثلاثتنا وعند وصُولنِا باب البيتِ شممنا رائحة دخان شجر الطلح [١٠] التي كنا نميزها من بين حريقِ أشجارِ غابةِ بكاملِها، فقال أحمد لوليد مُبشراً:

- يبدو أنهم قد استعدوا لك ياصاحبى!.

سألهُ وليد مستغرباً:

- وكيف عرفوا بمجيئى؟!.

- اتصلنا بهم بعد مكالمتك ليلة البارحة.

دفعنا الباب كعادتِنا ودخلنا بعد أن أجابه أحمد. صرخت أميمة من تحت شجرةِ اللالوبة عند رؤيتنا:

- يا إنتصار الجماعة جو!.

كانت إنتصار على حفرةِ الدخانِ في الراكوبة، وكان تنبيهها بمثابة دعوة لها للنهوض لتلفح ثوبها لأن الراكوبة هي المكان الطبيعي لاستقبالنا فيه. ولا تقبل حتى الداعرة أن تراها كاملة العُري خارج غرفة العمليات!.

---

١٠) شجرة الطلح : هي شجرة يستخدمنّ النساء السودانيات دخانها كطقس جنسي

خرجت علوية من غرفتِها مرحبة:

- أهلاً أهلاً اتفضلوا.

صافحتنا وكأننا لم نكن معهنّ قبل يوم. وصافحت وليد بحفاوة أكبر. عرفتهما على بعضِهما ثم تقدمت علوية ونحن خلفها إلى الراكوبة مُكررة:

- أهلاً.. أهلاً اتفضلوا.

دخلنا الراكوبة وكانت إنتصار قد تلفحت بثوبها الأحمر المُعتق بالهياجِ. صافحتنا بيدِها المبتلةِ من طلِ دخان شجر الطلح الجاف، فأيقظت مارد فحولتِنا من غفوتهِ.

جاءت أميمة وسلمت علينا فضمها أحمد من وسطِها إليه طابعا قُبلة على خدها الأيسر، ابتسمت له ثم غادرت.

وضع الدخان تحت المخدة، وقارورتى العرقي على الأرض تحت السرير ثم جلسنا. سألتُ علوية وأنا أُخرجُ عُلبة السجائرِ من جيبي:

- ما شايف مودة!.

قبل أن تُجيب على سؤالي خرجت مودة من إحدى الغرف عليها نُعاس من نهض لتوه من النوم، شعرها الأسود مُبعثراً

بفوضى ما أضفى على ملامِحها طفولة لطيفة. جاءت إلينا وهى تقاومُ نعاسَها ومُنتعلة ابتسامةً وديعةً كنتُ أعشقها.

سلمت على أحمد ووليد الذى قام أحمد بتعريفِها إليه. ومن ثم وقفتُ أنا لترتمي في حُضني مثل صغيرِ الزرزور. أخذتُ قُبلة من فمِها ثم جلستُ وأجلستها على فخذِ قدمي اليمنى واضعاً يدي على كتفِها.

لم يكن احتضاني لمودة بريئاً -بأي حال- بعدما ملأت رائحة طلح إنتصار ذاكرتي حد طفحها بانتظار ما سيكون.

لم تُنزل إنتصار عينيها من وليد الذى يبدو أنه قد أعجبها، كما لم يرفع وليد عينيه من على الأرض خجلاً. خصوصا بعد أن ضم أحمد إليه أميمة من وسطها مقبلاً واحتضاني مودة وتقبيلها ثم إجلاسها على فخذي.

رجعت إلينا أميمة حاملة ماء شرب وقفت أمام وليد وناولته كوب ماء وهى تمضغ علكة مُصدرة صوت طقيع . أخذه منها شاكراً دون أن ينظر إليها.

أخرج أحمد دفتر البرنسيس من جيب قميصه، ثم قطع منه ثلاث ورقات وناولها إلى علوية قائلا:

- لفى لينا سجارتين يا الحلبية.

ردت عليه وهى تنتزع الورقات من يده:

- الحلبة التمقص بطنك.

ضحكنا نصف ضحكة، ثم قطع أحمد ثلاث ورقات أخرى وناولها إلى أميمة قائلا لها:

- أكرمينا أنتِ بسجارتين زيادة ياست البنات.

أعجبها هذا المدح فأخذتهم منهُ بابتسامة عريضة دون أن تقول شيئا. قلتُ لمودة بعد قبلة صغيرة على خدها:

- القهوة عليك.

- من عيوني الاثنين.

قالت ذلك ثم همت بالوقوف من على قدمي ذاهبة لإحضار المنقد وأدوات القهوة. قالت إنتصار وهى تضع يدها على صدرها:

- وأنا عليّ شنو؟.

قلت لها مداعباً:

- أنت خليك اسبير!

استفزها هذا الرد جداً.. إذ كيف أطلب منها بعد أن عرضت

نفسها للخدمة أن تظل مجرد احتياطي!. فوقفت من على السرير، ثم وضعت كف يدها اليسرى على خصرها ورفعت حاجبيها إلى أعلى وفتلت فكها السفلي إلى جهة اليمين. ثم قالت لي وهى تُمررِ طرف عينيها من أسفل الى أعلى، ومُحرِكة أصابع يدها اليمنى كمن تنادى عليّ مع رفعة بسيطة لكتفها الأيسر إلى أعلى ومن ثم قالت:

- هاأأي يا إنته سمعتوا ولا جابوا ليك؟!..

انحنا بنااااتك ياعلوية ..

خت شخيطك .... واعرف مواعيدك ..

لوضليت طريقك ....انحنا بنفيدك ..

انفجرنا جميعا ضاحكين، حتى وليد الذى كان مندهشاً في البدايةِ. نظرت إلينا انتصار بطرفِ عينيها ضامة شفتيها، ومُميلهُما نحو اليسار مصدرة صوتاً لا يُكتب .. ثم مضت.

لحقتُ بها ثم ضممتها من الخلف راسماً قُبلة على عنقِها، وأنا أضحك ومُردداً:

- معليش .. معليش.

حتى ابتسمت فوضعت يدي على كتفها ورجعت بها إلى

الراكوبة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يضحك فيها وليد، فمنذُ وصولنا لم يتكلم ولم يضحك، ولم يرفع نظره من على الأرض إلاّ أحيانا!. يسرق نظرة ثم يعود ثانية إلى الأرض خجلاً.

وبدا مندهشاً جداً وهو يرى علوية وأميمة تبرمين سيجارة الدخان!. وازداد دهشةً حين رأى أميمة تلف السيجارة على فخذها بطريقة مُحترِفة . آثر الصمت على أن يقول شيئاً. ربما استنتج من إخباري له في غرفة جوكس أن يتقبل الأمور كما هي.

جاءت مودة بأدوات القهوة وأشعلت الفحم الذى ولعت منه علوية سيجارتها، مدت أميمة السيجارة التي انتهت من لفِها إلى وليد كي يشعلها وكان هذا بمثابة إكرام له. استغربت جداً عندما اعتذر لها بأنه لا يُدخن، نظرت إليّ علوية التي هزت لها رأسها إيجاباً، فناولتها لأحمد الذي أخذها وأشعلها من سيجارة علوية.

كانت مودة وإنتصار في هذا الأثناء قد بدأنَّ بتحميصِ البُن الذى فاحت منه رائحة كانت أذكى لأنوفنا من القهوة ذاتها.

وبين ألسنة دخان البُن المُحمص، ودخان السجائر الملفوف دار

حوار عن تفاصيل أجساد النساء وأيهنّ يرغب الرجال!. فقالت علوية مُشكرة ذاتها:

- النسوان الشايلات تقيل، هم البفضلوهم السودانيين.

ثم ضربت بيدِها على مؤخرتِها إشارةً إلى أنها تملك هذه الميزة. ثم قالت أَميمة بعد أن ناولتني السيجارة :

- ما تنسوا اللبن.

ثم رفعت نهديها بكفيها . وقال أحمد وهو ينفث دخان السيجارةِ التي كان ممسكاً بها:

- أنا غايتو ما بحب الدبل كبينة ولا اللبن النيدو، ما فى أحلى من القوام الإنجليزى!.

قالت له إنتصار وهى تهرُس البُن المُحمص في الفندك:

- يعنى قصدك شبهى أنا ؟!.

أجابها أحمد مُداعباً:

- ولا بحب برضوا الرجلين الرُقاق.

- الرجلين الرُقاق ما مشكلة لأنهم بكونوا فوق، المُهم البين الرجلين يا مُعلم!.

بِهذا ردت إنتصار بحنق وهى تنظر إليه بطرف عينيها. قلت

مُثنياً ومُضيفاً:

- أنا غايتو بحب الشعر والقعر!.

قالت مودة بسرعة وهى تُحرك مِغلاة البُن فوق الفحم، وكأنى قد أشبعت شيئا فيها:

- يعنى قول بتحبنى أنا وأنهى النقاش.

ضحكنا جميعا كما لم نضحك من قبل. وكان وليد مندهشاً جداً من هذه اللغة الجريئة التي لم يسمع مثلها من قبل، وطفح من على ملامحه خجل جعله أقرب إلى بنت الحي الخجولة منه إلى شاب في بيت الدعارة.

قصدنا تأجيل عرقي البلح إلى حين. فقد كان من عاداتنا تجرع كأس واحدة منه مع الدخانِ لنشربه كاملاً قبيل النوم، ولكن هذه المرة لم نتجرع حتى الكأس الواحدة. فنحن قد حجزنا بيت علوية بكل داعراتهِ ولم نكن نريد أن نتخدر فلا نستطيع فعل شيء معهنّ.

أصبحت القهوة جاهزة للشرب. لف أحمد وعلوية سيجارتي دخان آخرتين لشرب القهوة. فقد كان لاحتساء القهوة مع الدخان نكهة خاصة لدينا ودونها لا يكتمل طقس القعدة.

صبت مودة القهوة من البراد في التنكة، ووضعتها على الصينية ومعها الفناجين والسكرية، والمِبخر الصغير عليه بعض جمرات. وضعت إنتصار بخور العروسِ على الجمراتِ ثم بدأت بسكب القهوة في الفناجين وتوزيعها.

كان من طقوس القهوة عندنا وقوانينها في مثل هذه الجلسات أنَّ شخصا واحدا هو الذى يقوم بوضع السكر، وسكب القهوة وتوزيعها بغض النظر عمن يفعل ذلك.

أشعل أحمد السيجارة التي قام بلفها وناولتني علوية السيجارة الأخرى لأشعلها مع أول رشفة. وفى أثناء احتساء القهوة وتدخين الدخان تكلمنا في عدة مواضيع مختلفة. تحدثنا حول الجنس والنساء والرجال والزبائن، وعن حليمة التي بعد أن طردتها علوية أصبحت تعمل بائعة شاي في العباسية بأم درمان.

وبعد أن انتهينا من احتساء القهوة والدخان كان المزاج قد وصل مرحلة لا يكتمل بعدها إلا بين فخذي امرأة.

قلت لوليد وهو يضع فنجان القهوة بعد أن رشف منه آخر غصة بمتعة واضحة أن يذهب إلى تلك الغرفة، وأشرت إلى غرفة علوية لنظافتها المفرطة ولاعتنائها بها بنفسها.

ورغم معرفتي أنها لا تسمح لأحد باستخدامها ، كنتُ أعرف أيضاً أنها لن ترفض لوليد فهو زبون جديد وثقيل الجيب.

ذهب وليد، فقلتُ لإنتصار أن تتذكر ما قلتهُ لها بخصوصه، ولتُخرجه من هناك رجلاً كاملاً وسأمنحها مكافأة مالية، فابتسمت قائلة:

- ما تقلق .. خليه عليّ.

ثم ذهبت ودخلت الغرفة صافقة الباب خلفها. أخذ أحمد أميمة وقبل أن يغادر وضع يده على فخذ علوية وقال لها مُداعباً:

- لو سمعتى صُراخ ماتجي داخلة.

ضحكت علوية وأومأت برأسها موافقة، فأخذ أميمة ودخل غرفته وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة.

طوقت أنا مودة من وسطها بذراعيّ، ومددتُ فئة نقدية إلى علوية طالباً منها أن تعُد لنا عشاء جيداً. ثم ضممتُ مودة بقوة أكثر واتجهت بها إلى الغرفة.

دخلنا الغرفة، وسحبت الستائر الحمراء على الباب والنافذة حتى بدأ ينساب ضوء المساءِ خفيفاً من بين المنافذ. ناثراً ذاك

الشـعـاعِ الذهبي علـى السـرير حـتى بدأ وكـأنه يدعـوك لمطارحة امرأة كاملة الأنوثة عليه!

حضنتُ مـودة وأمطرتها بالقُبل طويلاً، ثم شرعتُ بوضع القُبل في منابع الإحساس عندها حتى بدأت تذوب بين ذراعيّ كقطعةِ ثلج. فعندما تُعاشر امرأة أكثر من مرة تكون قد عرفت من أين ينبع نهرُ أحاسيسِها، وخبرت جميع الروافد.

طرحتها على السريرِ وأنا أُقبلِها حتى تحول ثلجُها إلى ماء . ثم بدأت أفك أزرار قـمـيـصي الواحـد تلو الآخـر ببطء، وهي طريحةٌ تحتي ترتجى فوهتُها منيّ الولوج.

سمعتُ فجأة صوت إنتصار يعلُو في الخارج تنادى باسمي. نهـضتُ من فـوق مـودة التي بدت مـسـتـاءة ولم يرقـهـا هذا. اعتذرت لها ثم خرجتُ وأنا أركب أزرة قميصي من جديد ولكن هذه المرة من غير تأن.

في الخارج وجدتُ علوية تهدئ في إنتصار التي تبدو منفعلة وأحمد واقف مستاء بملابسهِ الداخلية ينظر إليهنّ، وأميمة تنظر من خلف باب غرفتِها مغطيةً صدرها بملاءة.

جاءت إنتصار نحوي ووقفت قُبالتي، ثم وضعت يدها على خصرِها ورفعت حاجبيها إلى أعلى ثم قالت بصوت عالٍ:

- صاحبك طلع لوطي!.

لفظت هذه العبارة ثم غادرتني إلى الراكوبة. سألت أحمد ماذا جرى فرفع كتفيه متعجباً ولم يجبني!. دخلتُ إلى وليد في الغرفة، وجدتهُ جالساً على طرفِ السريرِ بسرواله الداخلي فقط، ودافناً رأسه بين كفيه مُحدقاً إلى الأرض وهو يبكي!. جلستُ قربهُ على السرير ووضعتُ يدي على كتفهِ ثم سألته بهدوء:

- الحصل شنو يا وليد؟!.

نظرَ إليّ لبرهةٍ ودموعه منهمرة ثم قال:

- ماقدرته، وقالت لي أنت لوطي .. لوطي!.

نطق المفردةَ الأخيرة وأجهش بالبكاء. رجعتُ إلى إنتصار في الراكوبة وجدتها تشعل سيجارةً عادية فسألتها منفعلاً:

- أخبريني ما الذى جرى؟.

أجابتني وهى تنفث دخان سيجارتها دون أن تنظر إليّ:

- قد قذف صاحبك من أول ثلاث قُبل، ولم يستطع بعد ذلك الانتصاب أبداً!.

نظرتُ الى أحمد، فجلس على المقعد الذى قُربها ثم قال لها معاتباً:

- لماذا لم تصبرى عليه، فهو جديد في هذا ؟.

أجابتهُ بتأفف:

- عملت ليه السبعة وزمته، لكنه لم ينتصب أساساً مثل الرجال!.

أخبرتُ أحمد بأن يرتدي ملابسه وعلينا أن نخرج حالاً، لأن وليد في حالة نفسية سيئة. كذلك دخلتُ على وليد وأخبرتهُ أننا سنذهب إلى منزل جوكس. أخذنا العرقي وما تبقى من دخان ثم اعتذرنا من مودة وأميمة وغادرنا!.

حقيقةً، لم تكن إنتصار هي أنسب البنات إلى وليد، فقد كان يعُوزها الكثير، ولما فيها من جلافةٍ وغلظة تبدو مُنفرة.

كانت مودة هي الأنسب لوداعتِها وروحِها المرحة، ولكن لم يُطاوعني قلبي أن أمنحها له. رغم معرفتي أن عشرات الرجال غيري يطارحونها نفس الفراش، لم أكن الأول معها ولن أكون الأخير. ولكن الرجال أكثر أنانيةً عندما يتعلق الأمر بالنساء!.

(٥)

خرجنا من بيتِ علوية ووليد في حالة نفسية سيئة للغاية، وطوال طريقنا إلى منزل جوكس لم يتفوه واحد منا بكلمة. وكنا نحن لا نقلُ عنه سوءاً. فقد انقطعت متعتنا في ذروتها وفشل يومنا في خاتمته بعدما سار هادئاً وجميلاً.

واستئنا كذلك للذي جرى له. فرغم كل شيء قد حاول ولم يبخل علينا بما يملك فتعاطفنا معه كثيراً.

كنتُ أفكر في الطريقِ عن الذى حصل له بالضبط!. فإذا صدقت إنتصار فيما قالت، كيف لرجل أن يقذف بهذه السرعة، ومن دون حتى عملية احتكاك أو ولُوج؟!. بل وكيف له أن لا يستطيع الانتصاب أصلاً؟!.

شغلت هذه الأسئلة ذهني، وقبل أن أتحصل على إجابة لأي منها كنا قد وصلنا غرفة جوكس.

نادينا عليه من الخارج لم يكن موجوداً، فقفز أحمد من على

الحائط ِ ثم فتح لنا الباب لندخل. جلسنا ثلاثتُنا على الرملةِ المطروحة على أرضية الغرفة، ثم طلبت من أحمد أن يناولني كأس، فقد كنتُ في أمس الحوجةِ إليه. ثم سألت وليد الذى كان يجلس أمامي منكسراً ومنهاراً أن يحكى لنا بالتفصيلِ ماذا حدث؟.

أجهش باكياً وهو يحاولُ أن يسردَ لنا الذى حصل، ما جعل كلامهُ متقطعاً وغير مفهوم. طلبتُ منه أن يهدأ، ثم تجرعتُ الكأس الذى كنت مُمسكاً به بعدما أمده لي أحمد.

توقف وليد فجأة عن البكاء، ثم نظر إليّ نظرةً حادة بعينيهِ المُحمرتين من أثر البكاء، ثم قال لي بصوتٍ ثابت:

- أريد أن أشرب!

قال له أحمد مُستدركاً:

- ولكنك لا تشرب يا وليد!.

نزع وليد منه القارورة بالقوةِ وهو يقول:

- قلت لك أريد أن أشرب والآن.

أجابه أحمد وهو يُبعد الكأس عن مرمى يدهِ:

- حسناً .. حسناً فقط اهدأ أرجوك.

قال له هذا ثم نظر إليّ، هزتُ له رأسي موافقاً. أخذ منه القارورة وسكب له كأساً استلمه منه وليد وتجرعه بصعوبة، وملامح وجههِ مكفهرةً من جراء مرارته، وخصوصاً أنه لم يتذوقه من قبل.

صمتنا لفترة، أخرج فيها أحمد الدخان والورق وبدأ يلف سيجارة. قلت لوليد وأنا أضغط على مفتاح النور، أنّ من الأفضل لو يتصل بعمته ويخبرها أنه سيقضي الليلة مع أصدقائه، لأن في مثل هذا الوقت يصعب وجود حافلات إلى داخل الخرطوم.

أخرج هاتفه من جيبه واتصل بها، أخبرها أنه يدرس مع بعض أصدقائه في الداخلية وأنه مُضطر للمبيتِ لأنهم سوف يشرحون بعض المواد الصعبة. ثم تكلم معها طويلاً ما يوحي أنها مُمتعضة من فكرة مبيته خارج المنزل وغير راضية عنها. سأله أحمد وهو يناولني سيجارة الدخان لأشعلها:

- هل هذه أول مرةٍ تبيت فيها خارج المنزل؟.

اجابه وليد الذى بدا أكثر هدوءاً بعد ذاك الكاس:

- إن عمتي لا تحبذ مبيتي خارج البيت، ولكن إن أخبرتها قبل مدة قد توافق، وكنت أفعل ذلك إن أردت المبيت مع

خالي في المنشية.

أرجعت السيجارة لأحمد بعد أن أخذتُ منها أنفاسي، وقبل أن يستلمها مني سألني وليد:

- لماذا لم تُعطني السيجارة؟!.

سألناه أنا وأحمد في وقتٍ واحدٍ مندهشين:

- السيجارة؟!.

أجابنا ببرودٍ وهو يُمعنُ فينا:

- نعم، أنا أريد أن أدخن معكم هذه السيجارة!.

نظر إليّ أحمد فهززتُ له رأسي رافضاً. وقلتُ لوليد إن بإمكانهِ أن يشربَ معنا العرقي، ولكن لن نسمح له بتدخين هذهِ السيجارةِ معنا. ثم أخبره أحمد أن هذه السيجارة خطيرة جداً، وخصوصاً لشخص لم يتعود عليها.

قال لنا بانفعال وقد ترورقت عيناه:

- أنتم لا تعتبرونني رجلاً، ولذلك لا تُريدُونني أن أدخن معكم هذه السيجارة !. مثل إنتصار التي قالت لي "أنت لوطي" ولست رجلاً، ولا تستطيع إرضاء امرأة لأنك لا تختلف عنها في شيء!.

خرجت هذه المفردات من فـمـهِ مُحملة بـكل زفرات الإحـباط واستـصغار الذات. قالهـا وانفجر باكـياً كما يبكي أحدنا عندما يفقد من هو عزيز وغالٍ عليه.

رغم اندهاشنا من هذا المنطق الغريب، الذى يقارب فيه بين ما قالته له إنتصار ورفضنا إعطاءه السيجارة لخطورتها عليه. إلاّ أننا في مكان ما بررنا له ما قاله.

إن إنتـصـار قـد وضـعت ريشـة عـزفـهـا على وتر عـقـدتِنا كشرقيـين، وقالت له ما لا يستطيع أي رجلٍ تحملهُ مهما كان. فنحن نعـيشُ في مجـتـمعٍ قد يتقبل رجالهُ الطعن في صدقـهِم، في وفائِهم وفى وطنيتِهم، ولكنهم لا يحتـملون -البتـة- الطعن في رجولتِهم!.

وضعتُ يدي على كـتـفـهِ مهدئاً فـازداد بكاؤهُ. أعطاه أحـمـد سيـجـارة الدخان ولم أعـتـرض هذه المرة . استـلمـهـا منه بكسلٍ وهو يمسحُ بظهرِ يدهِ الأخرى دموعه.

صمـتنا لفـترة، مدّ أحـمـد لي كـاساً وكـأنه قد عـرف حوجـتي. أمعنتُ النظرَ في وليـد وهو ينفثُ نفس سيـجـارة الدخـان الأولى في حياتهِ، فكرتُ في خطورةِ السيجارةِ عليه.

فـهـو لم يتـعـاطى أدوات كـيف كـهـذه من قـبل ولم يتـعـامل مع

الأقل منها تأثيراً، مثل السجائرِ العادي والخمورِ البلدية والتُنباك.

إن المعروف عن سيجارةِ الدخان لشخص غير متمرسٍ عليها قد تقوده للتفكير في تناقضاتهِ ومشاكلهِ، وتُضخِم الأمور أضعاف حجمها الطبيعي، وتزيد الهوةَ بين الذاتي والموضوعي، وتُفعِل عقدةَ الذنبِ عنده في اللاوعي!. وكثيرون هم الذين قادتهم إلى الجنون، وما الجنونُ سوى أنه انفلات الذات من قبضةِ الموضوع!.

إن الأكثر كارثية من ذلك هو أن الأشخاصَ الذين يفقدون عقولهم بفعلِ سيجارة دخان لا يستطيع الأطباء النفسيون استرجاعهم إلى وعيِهم الاعتيادي . وذلك حسب ما أثبتت التجارب التي أجريت عليهم. ولم يكن بمقدورنا أبداً تحمُل نتيجة كهذه لوليد.

ولهذا كان رفضنا له قاطعاً بألاّ يتعاطاها معنا، وخصوصاً وهو في أزمة نفسية كهذهِ. ولكن بكاءه بهذه الطريقةِ قد رق له قلبانا، أعطيناه السيجارة وفى نفسنا شيء من حتى.

وأن الذي شجعنا على ذلك وجود عرقُ البلحِ الذى يعمل ككابحٍ لاشتطاطاتِ سيجارةِ الدخان منفردة حسب معرفتنا عنه.

لذلك عندما ناولهُ أحمد السيجارة، ثم مد له بعدها مباشرةً كأس العرقي. وبدأ يناقشهُ في مواضيعٍ مختلفةٍ حتى لا يُركز بتفكيرهِ فيما حصل له.

أصبح أكثر هدوءاً من جراء الكحولِ، وثقل لسانهُ في الحديثِ وأحمرت عيناه لفرط ما ذرفتا من دموع. أصبحنا نتبادل السيجارة والكأس لوحدنا دون أن نمررها عليه.

ثم فجأة، بدأ يضحك بهستيريا وهو يحكى لنا عن صديقه في السعودية الذى أحب فتاة عن طريق الفيسبوك، والتي كان يحبها أخوه من دون أن يعلم ذلك . ثم فجأة أخرى انفجر باكياً بنشيج، وقد حوّل حديثه إلى إنتصار وما قالته له، ثم يسبها وينعتها بالداعرةِ التي تُبيع جسدها!.

أدركنا أنه قد ثمل، نهضت من مكاني وعدلت له بؤس متاع جوكس على السرير، ثم ساعدته على النهوض ووضعته على السرير ممدداً وطلبت منه أن ينام . بدأ يقل كلامهُ تدريجياً إلى أن استكان للنوم.

انتهزنا فرصةَ نومهِ وواصلنا سهرتنا. قادنا النقاش إلى ما حدث له مع إنتصار وبعد طول نقاش قررنا مساعدته بتبديلِ الخطة.

اقترحت على أحمد فكرة أثنى عليها بتعديل بسيط وأزمعنا القيام بها في الصباح، وبما أن جوكس لم يعد حتى هذا الوقت، خمنا أنه ذهب إلى والدته كما يفعل عادةً فلا يوجد لديه هنا ما يقلق بشأنهِ. فتمددنا على رمالِ أرضية غرفتهِ متوسدين الصباحات.

نهضتُ صباح اليوم التالي على صوت أحمد ينادى باسمي، يبدو أنه نهض مُبكراً ثم ذهب إلى السوقِ وأحضر لنا الفطور فقد بتنا بالأمس جائعين. أيقظت وليد الذى بدا أحسن من ليلة أمس.

تناولنا الفطور مع بعضنا، ثم بعد ذلك وصلنا وليد إلى محطة الحافلات وانتظرناه حتى صعد الحافلة المتجهة إلى الخرطوم وأخبرناه أننا سنتصل به. ثم ودعناه ورجعنا أنا وأحمد فقد كان لدينا ما نفعله!.

اتجهنا بعد توديعه الى السوقِ لتناول القهوة والنقاش فيما قررنا القيامَ به بشأنِ وليد. دخلنا مكان طويلة الذى كان به هدوءاً صباحياً جميلاً، وما زادهُ روعةً رائحة بخورِ التيمانِ الذى كانت تطلقهُ طويلة عند الصباح.

ذاك البخور الذى يفتح فينا باب الحنينِ على مصرعيهِ. حنينٌ

إلى حضنِ أمهاتِنا، لأن أول ما أنجبننا أطلقوهُ بذريعةِ طرد الأرواحِ الشريرةِ عنا. حنينٌ إلى صباحات أعيادنا، لأن أولَ ما ندخل البيوتَ المشرعةَ الأبواب لنهنئ هو أول ما يستقبلنا مع شيالةِ الحلوى . وما الحنينُ سوى تلك اللعنةِ التي تُصيبنا كلما طرقت أناملُ اللحظةِ البابَ اللطيف للذاكرة!.

جلسنا بعدما سلمنا على طويلة على بنبرين في إحدى الزوايا كعادتِنا. لم يكن في المكانِ سوى بعضِ الزبائنِ الموزعين هنا وهناك. أحضرت بعض بناتِها لنا الماء البارد وفى أثناء انتظارنا لقهوتنا سألني أحمد:

- ماذا تعتقد بشأن مشكلة وليد، أهي مشكلة نفسية أم عضوية؟.

لم يباغتني هذا السؤال، فقد خطر ببالي أثناء طريقنا من المحطة إلى السوق، فأجبته مباشرةً :

- لا أدري، فقد قرأت في إحدى المجلات العلمية أن مزاولة العادة السرية كثيراً تؤدى الى ارتخاء في الجهازِ العصبي وضعف في الذاكرة، كما أنها تؤدي إلى سرعة القذف أيضاً.

- أتظن إذن أن عدم انتصاب وليد، وسرعة القذف لديه هما

نتوج ممارسة العادة السرية كثيراً؟.

أجبته وأنا أسكب لي كوب ماء:

- لا أستطيع الجزم. فعلى حسب علمي أيضاً، أن الرجل عندما يكون خائفاً لا يستطيع الانتصاب. وقد يكون هذا هو سبب عدم انتصابه، وخصوصاً أن هذه أول ممارسة له ولابد أنه كان خائفاً.

أحضرت طويلة لنا القهوة ثم أهدتنا ابتسامتها اللطيفة تلك، وهى تضعها أمامنا على الطاولة القصيرة بذلك البطء والميلان المُتعمد. رددنا لها الابتسامة شاكرين وغادرت.

قال لي أحمد وهو يضع السكَّر على الفناجين:

- أعتقد أنه سينجح إن توفرت له ظروف أفضل من ذلك إن كانت مشكلته نفسية، وإن كانت عضوية لن ينجح حتى إذا توفرت له الظروف المناسبة!.

- أتمنى أن تكون المشكلة نفسية.

قلتُ له هذا وأنا أرشف فنجان قهوتي ثم بدأنا نتناقش في تفاصيل يومنا، وتنفيذ الفكرة التي اتفقنا عليها لمساعدة وليد. شربنا القهوة ثم وضع أحمد النقودَ تحت فنجانهِ وأشرنا

لطويلة مودعين ثم غادرنا.

ذهب أحمد إلى رئاسة اللواء لينجز لنا الدخان فقد تبقى لنا من مال وليد الكثير. اتجهتُ أنا صوب بيت علوية لأفتح الموضوع لمودة بشأن وليد، وسيلحق بي هو هناك.

سِرتُ إلى بيت علوية وأنا أفكر أن مودة ربما سترفُض ما سأطلبه منها، وتفترض أنيّ لا أحترمها ولا أكترث فعلياً لمشاعرها تجاهي، والتي كثيراً ما لمحت لي بها، وكنت أُقابل تلميحها بالتغابي.

رغم علمِها أنيّ لا أنظر إليها سوى ماعونٍ لتفريغ نزوةٍ طفح بها الكيلُ. كانت مودة تُحبني بطريقتِها الخاصة، وكانت تُعجبني في مكانٍ ما طريقتها تلك. وأكَاد في بعض الأحيانِ أن أنساق لحبها لولا أنيّ أكبح مشاعري!.

كانت تُلغى ارتباطاتها مع زبائنِها من أجلي إن حصل واتصلتُ بها لأخبرها بقدومي. تمنحني ليالي دون أن أدفعَ لها، ورغم أنها أجمل داعرات علوية لم يكُن يُعنيها المال كثيراً مثل أميمة وإنتصار بقدر ما كان يُعنيها أي الرجالِ ترغب، وكنتُ أُمثل لها كل هؤلاء الرجال!.

تفرح كثيرا عند رؤيتي، وتدفن رأسها في إبطي بعد كل

ممارسة.. وتنام كطفلة !. تُدللني كما لم تُدللني امرأة من قبل، وكآخر الرجال على الأرضِ كنتُ أنا لها.

لا يُغضبها نعتي لها بالشرموطةِ إن حدث وغضبتُ منها. عكس علوية وباقي بناتِها. حدث وأن قلت لها وهى مُستلقية على السريرِ بجواري شبه عارية:

- أنتِ أجمل من تكوني داعرة!.

مالت عليّ، ثم قالت وهى تُداعب أنفى بإصبعها:

- إن لم أكن داعرة لما حظيت بي!.

حقيقةً أن الحب حالة لا تعترف أبداً بالقاموس القيمي الاجتماعي لتصنيف المرأة بين شريفة ووضيعة، أو عفيفة وساقطة. إن مودة داعرة جميلة كانت تعرف كيف تُحب.

وصلت بيت علوية وكان الباب مُواربا، دفعتهُ ثم دخلتُ. كانت إنتصار هي أول من صادفتني، وهى تكنُس في فناءِ البيتِ من صفقِ شجرةِ اللالوبة الناشف. سلمتُ عليها وكأن شيئاً لم يكن!.

لم أكن أريد إعطاء موضوع وليد حجماً بينهنّ أكثر مما يستحق، فمثل هذه المواضيع هي شغلهنّ الشاغل.

دخلتُ إلى الراكوية، كان فيها علوية ورجلُ غريب أشعث يضحكان، أدركت أنهُ زبون. سلمتُ عليهما فاستقبلتني علوية بحفاوةٍ ثم بادرت وسألتني عن حال وليد. أجبتها أنهُ بخير وسألتها إن كانت مودة في الغرفة. أخبرتني أنها في الدكان المجاور تشتري بعض الأغراض.

خرجت أميمة من إحدى الغرف أثناء حديثي مع علوية مرتدية فستان نوم قصير وشفاف كانت به أكثر إثارة . سلمت عليّ ثم سألتني عن أحمد الذى أجبتها أنه سوف يأتي. وعندما لم تغتبط لفكرة مجيئه، أدركت أن معها زبونا آخر في الغرفة.

إن للداعرات سلوكا عجيبا، إنهنّ لا يحبذنّ أن يجدهنّ أحد الزبائن برفقة زبونٍ آخر. وخصوصاً إن كان هذا الآخر زبون ثابت مثل أحمد.

وحقيقةً، أنه حتى الزبون لا يحبذ أن يُشاهد الداعرةَ التي يُفضلها برفقةِ زبونٍ آخر. رغم معرفته المسبقة أنها داعرة، وهذه هي مهنتُها ومصدر رزقها، ويتحاشى حقيقة أنها بطبيعةِ الحال تُعاشر رجالاً غيره سواء رضيَّ بذلك أو أبى!.

ربما كان سلوكُ الزبونِ هذا هو نتيجةٌ لتكنيكِ الداعراتِ أنفسهنّ، لأنهنّ يروضنّ الزبون ليعاود الكرةَ بعد الكرةِ، ويكون

مـصــدَر دخلٍ ثابت. لذلك يمارسنّ الجنس مع أي رجلٍ وكــأنه الرجل الوحيد في العالم.

فيُعددنّ أنفسهنّ له قبل المعاشرة، ويتغنجنّ ويتلوينّ أثناء الممارسةِ وكأنهنّ لم يخبرنّ هذا الفعل من قبل. ويصدرنّ أصواتاً كأنثى القط، ما يجعل الرجل يشعر وهو فوق إحداهنّ وكأنه الفحولة تمشي على ساقين!.

في أثناء حديثي مع أميمة دخلت مودة، وهي تحملُ كيساً أسود صغيراً، انشرحت حين رأتني ورمتني بابتسامة عريضة فسامرتها بمثلها. أسرعت خطواتها نحوي ثم ارتمت في حضني معانقة، ضممتها إليّ بطريقةٍ لا تخلو من الخبثِ . وضعتُ يدى على خصرِها وسرت بها عدة خطوات، ثم طلبتُ منها أن تلحق بي في الغرفة لأني أريد أن أكلمها في موضوع.

دخلتُ الغرفة وجلستُ على طرف السريرِ ثم لحقت بي بعد عدة دقائق، قبلتني قُبلة قصيرة ثم جلست بجواري وهي تقول:

- أمرك يا سيدي؟.

وضعت يدي على كتفها ثم قلت لها حتى استدرجها:

- بالمناسبة وليد حالته النفسية صعبة.

- كُر عليّ [١١].. المسكين!.

نطقت بها وفى عينيها الكثير، فواصلتُ قائلا:

- إنتصار ما عرفت تتعامل معاه، رغم إني كلمتها أنو دي أول مرة يرقد فيها مع بت!.

لم تقل شيئا وكأنها في انتظار أن أقول لها ما المطلوب. قررت أن استجدي عطفها أكثر فبدأت أحكي لها عنه وعن مشكلته والذى حصل في غرفة جوكس وماذا قال.

قطعت كلامي فجأة، ثم قلتُ لها وأنا أمعن النظر في عينيها:

- مودة ... عايزك ترقدي معاه!.

فاجأها طلبي هذا، فتلعثمت فيما كانت تزمع أن تقول، ثم استدركت قائلة:

- ولكن!.

قاطعتها، وأنا أضغط على كتفها أكثر:

- أرجوك يا مودة .. عشانى أنا!.

---

١١) كُر علىّ : هي صيغة يستخدمها النساء السودانيات للتعبير عن العطف أو الشفقة.

نظرت إلى الأرضِ لبرهةٍ، ثم رفعت رأسها ناظرة إليّ لوهلةٍ ثم هزتهُ إيجاباً. استقبلت موافقتها هذه بابتسامة عريضة، ثم وضعتُ قُبلة على خدِها شاكراً.

سمعنا صوت أحمد من الخارج وهو يتكلم مع أميمة بصوتٍ عالٍ ويضحك، سألت مودة أن نخرج فقالت مبتسمة لي:

- أوكى..

مررتُ يدي على شعرِها، وأخذت منها قبلةً سريعة ثم خرجنا ويدي على كتفها مبتسمين. عندما رآني أحمد بمزاج جيد أدرك أن الجزء الأول من الخطة قد نجح فقاسمنا الابتسام.

جلسنا جميعا داخل الراكوبة، كانت أميمة قد تحايلت على زبونِها وصرفته قبل قدُوم أحمد، وكذلك فعلت علوية. بدأنا بلف سجائر دخاننا، ونحن نستمع إلى علوية وهى تقصُ علينا حكايةَ ذلك الزبون الأشعث الذى طلب يدها للزواجِ بعد قضاء وطره معها!.

وحكى لها أنهُ في ماضيه كان مُتزوجاً من جنية لمدة ثلاث سنوات، ولم يُبادلها الحبَ الذى كانت تحبهُ له. ولم يستطع الفكاك منها حتى طلقهُ منها أحد شيوخِ الفلاتةِ الكِبار في منطقةِ مايرنو في ولاية سنار!.

كانت علوية تحكي لنا هذه القصة، وهي مُستنكرة أن يطلب يدها رجلُ كان متزوجاً من جنية.. فربما لاحقتها اللعنةُ!.

كانت مودة وإنتصار يسمعنّها في انهماكٍ تام، وكذلك أميمة التي كانت تذهب راكضةً إلى المطبخِ لتختبر اللحمةَ التي أحضرها معه أحمد على النار، بعد أنْ وقعَ عليها تكليف إعدادها. ثم تعودُ راكضةً كي لا يفوتها شيءٌ من لسانِ علوية.

كنا قد أشعلنا سيجارتين أنا وأحمد مستمعين إلى قصةِ الرجلِ من علوية ساخرين ومستمتعين في الآن عينه.

إنَّ علوية تتمتع بمخيلةٍ خصبةٍ للغاية، أنها تستطيع أن تروي لك قصة بثلاثة أضعاف ما سمعتها، تحذف وتُضيف ما تشاء منها. تُنقحها وتُعيدُ تركيب المشاهد حتى تُحيلها إلى أكثر الأساطير متعةً. وقد يتم كل ذلك في لحظاتٍ. كنا جميعاً نعرف هذا، ولكننا لا نستطيع أن نقاوم شطحاتَها الشيقة فهي روائية فذة مغمورة في القاع.

في أثناء انهماكنا مع علوية رنّ هاتفي الجوال بمحادثةٍ من وليد. استأذنت وابتعدت عنهم قليلاً . سألني بعد أن سلم عليّ إن كنا لا نزال في سوبا، لأنهُ لم يشاهدنا في الجامعةِ، كما كان لأحمد محاضرات مهمة لم يحضرها.

أعلمتهُ أننا في سوبا وطلبت منه الحضور غداً عند التاسعة صباحاً، وسنكون في المحطة في انتظاره. وافق بسرعة على طلبي له بالحضورِ، وكأنه كان ينتظر مني ذلك، وطلب منى قبل إغلاق المكالمة شيئاً غريباً، وهو أن نجهزَ له بعض الدخان!.

رجعتُ بعد المكالمة الى الشلةِ. مدت لى مودة السيجارة التي كانت تنتظرني بها، وواصلت علوية سرد قصصها الغريبة التي لا تكاد تنتهي واحدة حتى تأتي بغيرها. فلها في كل ولايةٍ من ولاياتِ السودانِ قصة أغرب من الأخرى.

جاءت إلينا أميمة بمأدبتها الشهية التي كان لها طعم خاص. خصوصاً بعد أن تضاعفت حواسنا أضعاف ما كانت عليه. وهكذا انطوى نهارُنا ليبدأ مساءنا بين أفخاذِ نسائنا تعويضاً لليلةِ التي أفسدتها لنا إنتصار.

(٦)

كانت ليلتنا في بيتِ علوية ليلةً ممتعةً للغاية، خرجنا من بيتها صبيحة اليوم التالي مُتجهين إلى المحطة لاستقبال وليد، وكأننا قد أنزلنا حِملا ثقيلاً عن كاهلينا.

مُسكين هو وليد الذى لم يشعر بمثل هذه المتعة من قبل. إن للجنس فعلا سحريا على البدنِ، فلا يمكن أن يستعيض رجل - بأي حال من الأحوال- عن مهبل أنثى بكف يده ولزوجة صابون. إن لمهبل المرأة دفئاً خاصاً لا يعادله إلا ذلك الدفء الذى يحظى به الجنين داخل رحمها.

قال لي أحمد ونحن في الطريق:

- أتمنى ألا يحرجنا وليد هذه المرة أيضاً.

قلتُ له مُطمئناً:

- لا تقلق، فقد اتفقتُ مع مودة ليلة البارحة على كل شيء، فإذا كانت هذه المشكلة نفسية أتوقع له النجاح.

كنت أقصد ب »كل شيء« هذه، كل شيء فعلياً. فقد اتفقت معها البارحة حتى عن أوضاع الممارسة، وطلبتُ منها أن تُعطى المُداعبةَ مدةً كافية. هذه علاوة على أنها داعرة مُحترفة تستطيع أن تقوده بنفسها إلى المطلوب إكراماً لي وله.

وصلنا المحطة ولم يكن وليد قد وصل بعد، اتصلنا به هاتفياً أخبرنا أن الحافلة لتوها قد دخلت سوبا.

جلسنا عند بائعة الشاي الأكثر هدوءاً في المحطة . وطلبنا كوبين من الشاي إلى أن يصل وليد. وقصدنا تأجيل القهوة حتى نحتسيها بطقوسِها في بيت علوية. وكانت هنا قد وصلت الحافلة التي نزل منها وليد، أشرت له ملوحاً بكفي حتى أبصرنا وجاء إلينا، سلم علينا بحرارة وجلس.

كان أفضل حالاً بكثير . طلبنا له الشاي، ثم سألهُ أحمد عن أخبارهِ والجامعة؟. فأجابه:

- أخبرنا الدكتور أن جدول الامتحانات سوف يُعلق قريباً، ولا توجد فيه فترات كافية للمذاكرة بين مادة وأخرى.

أفزعنا هذا الخبر فعلاً، فقد أخبرنا وليد آخر ما كنا نرغب في سماعه. انقضى العام الدراسي بسرعة ونحن متنقلون بين قطية ميرى والتنينة، وبيت علوية وغرفة جوكس.

ولم نكن نريد حتى تَخيُل اجترار عامٍ دراسي آخر في نفس القاعة، تكفى إعادة العام الماضي. إن الرسوب كان هو الفكرة التي نهرب منها بمرارة كأس العرقي واصطفاف ورق البرنسيس.

سألنا وليد بعد أن شاهد علامات التبرمِ على وجهينا حتى يُغير الموضوع:

- عموماً إلى أين سنذهب الآن؟.

أجبتهُ:

- إلى بيت علوية.

بدأ متضايقاً من فكرةِ الذهابِ إلى بيتِ علوية بعد الذى حصل له هناك. وقلتُ له مطمئناً:

- وليد.. في المرة السابقة لم تنجح في الأمر لأنك كنت متوتراً فقط، ولكن هذه المرةِ سوف..

قاطعني منفعلاً:

- ولكن إنتصار ..!؟.

قاطعه أحمد بدورهِ مُطمئناً:

- ليست إنتصار.. هذه المرة مع مودة.

نظر إليّ مُستغرباً ثم صاح:

- مودة!؟.

طلبت منه أن يهدأ ولا يقلق، ثم أخبرته حتى لا يجد مجالاً للرفض بأني اتفقت معها على كل شيء، وأنا واثق من أنه سيُوفق هذه المرة، فقط عليه أن يكون أكثر هدوءاً ويترك كل شيء عليها.

لم يبدو عليه الاقتناع، ونظر إلى الأرض. صمتنا لفترة ثم رفع رأسه وقال:

- أوكي .. والدخان؟!.

نظرتُ إلى أحمد الذى حاول مناقشته لِيعدِل عن رأيه. قاطعه وليد قائلاً له إنه ليس طفلاً وأن هذا خياره وعلينا احترامه، لم نقل شيئاً، صمتنا لفترة ثم نهض أحمد وهو يقول:

- حسنا علينا الذهاب.

أخرج وليد فئة نقدية كبيرة من جيب قميصه لمحاسبة بائعة الشاي. قبضت يده قبل أن يمدها وحذرته أن لا يخرج مثل هذه الفئة هنا في السوق، فقد نتعرض بسببها للقتل. ثم أخرجت فئة أخرى أقل منها بكثير ومددتها لها.

قلت لوليد بعد عدة خطوات أن يعطى المال الذى معه لأحمد. أخرج مبلغاً ضخما وناوله له، استلمه منه أحمد بسرعة ووضعه في جيبه حتى لا ينتبه أحد من مشردي السوق هناك ويسبب لنا المشاكل.

وبما أنه قد توفر لنا المال الكافي ولم يتبق لنا شيء من دخان البارحة، قررنا أن نذهب ثلاثتنا لإنجاز المزاج وكل لوازم القعدة.

اتصلت بعلوية وأخبرتها بأننا سنأتي إليها، وكان معنى ذلك أن تضع مجيئنا فى الحسبان فلا نجد عندها زبائن يُعكرون علينا صفاء طقس القعدة وخشية أن وليد لن يستطيع فعل شيء في وجود الغرباء. كما أننا نريد أن نفيه حقه المناسب بعد أن تكرم علينا بكل هذا المال.

تحركنا إلى رئاسة اللواء سالكين الطرق القصيرة المُعوجة، تلك الطرق التي تشبه تماماً ديدان الأرض المُتخللة بعض الطينِ داخل قطعة قماشٍ مُبتلة لصيادِ السمك.

إنها شوارع ضيقة أو أزقة تفصل بين منزلين. المنازل التي لفرط قُصر حيطانها المبنية من الجالوص تستطيع أن تبصر كل بؤس متاعها وأنت بالخارج. المباني تتشابه جميعها وكأنها منزل واحد يتكرر عشرات المرات. غرفة قصيرة من الجالوصِ

بابها من الخشب أو الحديد المصنوع محلياً، مطلى بلونٍ دهانٍ صارخٍ قد يكون الأصفر أو ربما الوردي .. لا يهُم.

أمامها راكوبةٌ بها سريران ومزيرة ماءٍ تُستخدم كمضيفةٍ لضيوفٍ يتكررون يومياً، ويدخلون بدون قرع الأبواب لأن هؤلاء الضيوف هم الجيران!.

الأبواب مفتوحة طوّال النهار، وتُقفل في الليل. وقفلها هو سندها بخشبةٍ أو ربطها بسلك على مسمار مقروزٌ في الحائط.

إن هذا الحرص على تأمين الباب ليس بسبب اللصوص الذين تسمع يومياً أنهم قد كثروا هذه الأيام!. فلا يُوجد هناك لصوص لأنه لا يُوجد أصلاً هناك ما يستحق أن يُسرق.

ولكن هذا الحِرص في تأمين الأبواب هو الكلاب الضالة، التي تتجمع وتكثر في الليل ولا تُميِّز فعلاً بين الشارع والمنزل . فتدخل منازلهم دئماً وهم نائمون دونما استئذان.

كانت الطرق في سوبا الأراضي إضافةً إلى ضيقِها وقصرِها، لا يكاد يُخلو شارع فيها من الأطفال العريانين تماماً سوى من الغباش. يلعب بعضهم وآخرون منهم يتقوضون في العراء غير آبهين بالمارةِ الذين بدورِهم لايُولّوهم الاهتمام.

سألني وليد الذى بدا محتاراً فيما يرى، عن الذى يفعله السكانُ بكلِ هذه الحمير، التي يكادُ أيضاً لا يخلو شارع من واحدة منها أو اثنين مربوطة على عرباتِها ؟.

أخبرته أن جميع المنازل هنا لا توجد بها خطوط توصيل المياه. لذلك جميع السكان يشترون الماء من أصحاب هذه الحمير بعدما ينقلونها بهذه العربةِ، التي تجرها حميرهم من البئر الواحدة التي تبرعت لهم الحكومةُ بحفرها.

إضافةً أن عربة الكارو هي وسيلة المواصلات الرئيسية داخل الأحياء . ولهذا يجد السكان أن الحمير استثمار جيد للغاية هنا.

دخلنا رئاسة اللواء واتجهنا مباشرة إلى ميرى متجاهلين النظرات العدائية التي يُوجهها بعض المارةِ لوليد، وذلك لبياض بشرتهِ وأناقة ملبسه. طلب منه أحمد أن يرفع رأسه من على الأرض، وينفخ صدرهُ قليلاً حتى لا يعتبروننا مساكين ويكيدون لنا.

فرك أحمد كفيه مستبشراً عند دخولنا منزل ميرى، فقد كان به الكثير من المُروجين، وبائعي الجملة والقطاعي. وهذا دليل على أن حمولة جيدة قد وصلتها.

خرجت ميرى من قُطيتِها الشبيهة بالمغارة، وابتسمت عند رؤيتنا حتى أظهرت فراغ قواطع فكها السفلي المخلوعة. ثم قالت لنا مُرحبة بعربي جوبا الذى كنا نستلطفهُ منها:

- جنا بتاعى الليلة جانا بى ضيوف بتاعو...؟!

أي أن ابني جاءني مع ضيوفه وهى صيغة مقصود بها الترحيب، وضيوفه بالطبع المعنِي بها وليد الذى يبدو غريب الشكل في هذه البيئة بشكل واضح . قلتُ لها مجاملاً:

- جنا بتاعك عايز يكرم ضيوفوا بحاجة تمتعوا . أها وأخبار معلم جمايكا شنو؟!.

أجابتني كما تجيبني كل مرة:

- قريب ويجي مارق، أدعو ليه.

إن قريباً وسوف يخرج هذه تعنى بعد تسعة عشر عاماً. فقد قُبض على زوجها مُعلم جمايكا العام الماضي بحمولة ضخمة من الدخان، وحُكم عليه بالسجن عشرين عاماً. وسمعنا أنها تذهب إلى شيخ وتتعامل معه حتى يُخرِج زوجها من السجن، وهناك من يُصدق هذا الادعاء.

فقد تناقل الناس في سوبا جميعاً، والكِيِّفون والمعلمون في

جميع الولاية خبر خروج المعلم جمايكا من السجن في المرة الأخيرة عندما قُبض عليه بعد عامين فقط. كان قد حُكم عليه بعشرةِ أعوام!.

وقِيل إن زوجته ميرى تذهب إلى شيخ قوي يتعامل مع الجن السفلى أخرج لها زوجها في هذه المدة القصيرة.

اشترينا رأسين من الدخان من ميرى، وذلك بعد أن شمَّهما أحمد وأكد جودتهما . فقد كان يميز بين الدخان الجيد والبيش[١٢] من خلالِ حاسة الشم التي لا تخطئ عنده. خرجنا من ميرى سالكين الطريق إلى التنينة بائعة الخمور البلدية. تحولت حيرة وليد إلى دهشة عندما صادفنا وقبيل أن نصل إلى بيت التنينة بقليل بعض السكارى على الطريق يتعاركون بشكلٍ عنيف، والدم ينزف من إنوفهم وأفواههم دونما يُوٓالوهم الناس الاهتمام!.

انتبه أحمد إلى استغراب واندهاش وليد فيما كان يرى. إن التساؤل في عينيه واضح، إذ لماذا لا يتدخل أحد قبل أنْ يقتل أحدهم الآخر؟!. ولذا نظر إليه أحمد نظرة حادة، ثم قال له دون أن نتوقف:

---

١٢) بيش: هي مفردة يستخدمها الكيِّفون للتدليل على ردا ءة وسوء الصنف.

- وليد.. دعهم وشأنهم!.

حقيقةً، كان وليد يلزمهُ الكثير ليفهم أن الناس هنا يعيشون حياة الغاب. منطق الحذر هو الذي يسري ولا منطق سواه. كى تعيش في منطقة كهذه عليك أن تعي القاعدة الأولى، وهى "عليك بنفسِك .. ولا تحشر أنفك فيما لا يعنيك"!.

وذلك أن تدخل هنا بين شخصين مختلفين، أو متشاجرين. قد يُفقدك حياتك بكل بساطة دون أن ينتبه أحد لجثتك.

وصلنا بيت التنينة، صاح أحمد باسمها من الخارج. ثم رفعتُ سلك الباب الذى يُستخدم كالون لقفل الباب مع الخشبة، ثم ركلتهُ بقدمي ودخلنا.

كانت التنينة تجلس بجثتها الضخمة على سرير على جهة ظل قطيتها. انفجرت بضحكتها المُجلجلة عند رؤيتنا، ثم قالت:

- خلعتونى، أنا قلت الطارة كبست ولا شنو؟!..

ثم واصلت ضاحكة، وهى تهتز أثناء الضحك مثل سيارة وحِلة في الطينِ يحاول سائقها إخراجها بالضغط على مضخة الوقود.

كانت تقصد بقولها إنها قد ظنت أننا الطارة وهى سيارة بوليس النظام العام، وهذا هو اسمها المتُعارف عليه في مثل هذه المناطق. وكبست هي إحالة إلى المداهمة.

لأنّ سيارة النظام العام تأتي لمثل هذه الأماكن فجأة، وتُداهم بيوت الدخان والخمور البلدية والدعارة. وتقبض كل الموجودين في المنزل، وتأخذ كل ما تضع يدها عليه في عرباتها الكبيرة ذات الشبك.

ثم تنقلهم إلى قسم بوليس النظام العام، وتتم محاكمتهم تحت مواد مختلفة من القانون. وبعد ذلك يقتسم العساكر كل الذى حصلوا عليه ويبيعونهُ كغنيمة.

إن ما يُسمى بقانون النظام العام في السودان يبيح لممثليهِ ما يحرمهُ لغيرهم من المواطنين. ولذلك كان المواطنون يكرهون الطارة وما تفعله بهم. ولهذا فزعت التنينة لدخولنا عليها فجأةً، وكذلك من مظهر وليد المُثير للريبة.

سلمنا عليها مبتسمين من جراء ضحكتِها. سلمت علينا بإسمينا، عرفناها على وليد حتى نُبدد لها أي هاجس قد يساورها منهُ. صافحتهُ بقوة اهتز لها نصفهُ الأعلى بكاملهِ.

طلبنا منها قارورتين من عرقي بِكر، ثم جلسنا على البنابرِ

الموزعةِ على طول الظل المرمى من حائط الحصير لفناء منزلها، وقد وُضِعت هناك خِصيصاً للزبائن.

بعد فترة قصيرة، جاءت إلينا إحدى الفتيات العاملات معها بما طلبنا، ناولني أحمد كأسا تجرعتهُ بسرعة، وأشعلتُ خلفهُ مباشرةً سيجارةً حتى أخفف من مرارةِ في حلقي. مدَ كأساً آخر إلى وليد الذى تجرعه بصعوبة شديدة، وأخذ هو الكأس خاصتهُ. ثم ذهبنا الى التينة، شكرناها وخلصناها الذى طلبناه ثم خرجنا مغادرين.

استغلينا بعد خروجنا من التنينة عربة الكارو المتجهة إلى السوق الكبير، وذلك لبُعد المسافة بينه ورئاسة اللواء. كما أردنا أن يعرف وليد واحدة من وسائل المواصلات التي لم يتعرف عليها في القرن الواحد والعشرين!.

كانت عربة الكارو هي عبارة عن خشبة مستطيلة ومُسطحة، رُكِّب بجانبيها من الخلف عجلات لسيارة عادية، وتم وضعها من الأمام على ظهر حمار رُبِطت عليه بطريقة مُعينة.

يجلس عليها الركاب مُصطفين بجنبيها، وأرجلهم مُدلاة إلى أسفل. ويبدو في الفترات الأخيرة أن أصحاب عربات الكارو قد طورُوها. حيث أصبحوا يضعون عليها سماعتي صوت

ضخمتين في الجانبين، مُوصلاتٍ بمسجلِ سيارة يعمل بالبطارية. تُشغل عليه غالباً إحدى مُغنيات الهجيج في القاع، أو شرائط كاسيت عربية لفنانات لا يمكن أن يتخيلنّ -بأي حال- أنهنّ يُسمعنّ في مناطق كهذه وإن تعاطينّ نصف ما تنتجهُ كولمبيا من المخدرات. ذلك لأنهنّ -ببساطة- لا يمكن أنْ يتخيلنّ أنّ في هذا الكوكب الصغير تُوجد مناطق كهذه أصلاً!.

ذهبنا إلى السوق كي نشترى ما يُؤكل بعدما أنجزنا ما يُدخن ويُشرب. قصدنا ملحمة أحد الجزارين يُدعى قرن وذلك لا لنظافة مكانهِ، فهو لا يختلف من حيث المكان عن باقي القصابات التي من العادي هناك أنْ تكون لصيقة صالون حِلاقة!. ولكن اخترناه لمعرفتنا به، ولأنهُ سيجودُ علينا بما يكتنز به جوف الخِراف من طاعمِ الدسم. فهو يعرفها عن ظهرِ جزار.

قضينا حوجتنا من قرن ثم تجولنا في ذلك السوق الذى لا يخلو سوى من النظام. اشترينا كل الذى نحتاج إليه، وكل الذى توقعنا أن نحتاج إليه. ثم أجرنا عربة كارو إلى بيت علوية لإدخال كل هذا الخام في ماكينة الجسد، وتحويلهُ إلى سلعه تُدعى المزاج.

استقبلتنا علوية وبناتها عدا -مودة- بحفاوة لم يسبق لها مثيل، ونحنُ نُحمِل كل هذه الأشياء معنا. أدخلونا إلى الراكوبة وكأننا زبائن جُدد وهذه هي زيارتُنا الأولى. جاءونا بالماء والعصير قبل أن نجلس حتى.

كررت علوية سؤال وليد عن حالهِ وأخبارهِ عِدة مرات!. وكان يُجيبها نفس الإجابة كل مرة «الحمد لله» !. مصحُوبة بهزةٍ خفيفةٍ لرأسهِ وابتسامة عريضة على وجههِ الناعِم.

إنتصار كانت أكثر ظرافةً من العادة، وتعاملت مع وليد وكأن شيئاً لم يكن، ويبدو أن علوية قد أوصتها.

جلسنا أنا وأحمد على سريرٍ واحد، ووليد على كرسي قرب سريرنا، وعلوية وباقي بناتها موزعات على باقي الأسِرةِ والمقاعد.

ثم .. ظهرت مودة، ياااا إله العصافيرِ ماذا فعلت بنفسها لتكون بكل هذا الجمال؟!. قد أعدت ذاتها لوليد كما لم تعد لي نفسها في أي يومٍ مضى!. سلمت علينا، ثم جلست على السرير الذى يُقاصدنا.

أهلاً، مقرونة باسمي ونصف ابتسامة. لم تُسلم أبداً يوماً عليّ كما سلمت عليّ اليوم. فكرتُ.. أن ربما لأن الليلة السابقة

كنا مع بعضنا، أو أنها لا تريد أن تحرج وليد.

تأملتُها، إنها أكثر إثارةً من يومي السابق معها، ويبدو أنها قضت يومها جالسة على حفرة الدخان، ثم مررت الكثير من حبات الدلكة على جسمها بعناية فائقة، حتى تحولت سحنتها إلى هذا اللون الذهبي.

اشتهيتُها .. تباً لك يا وليد..

شعرتُ، في مكانٍ ما أنه يُعجبها، وقد منحتها له على طبقٍ من ذهب. هل لأنّ وليد أكثر وسامةً مني؟!. أم لأنَّ جيبهُ أثقل؟!.

قررتُ أنْ لا أفسد ما قضينا يومنا كلهُ في الإعداد لهُ. وتمنيتُ بعد كل الذى فعلتهُ له مودة أن يخرج من بين فخذيها رجلاً كاملاً، يستحق الجميلات من النساء.

بدأنا القعدة بطقوسها المعتادة. أخذ أحمد وعلوية بلف سجائر الدخان، وقصدنا كالعادة تأجيل شراب عرقي البلح إلى قبيل النوم. وتفرغت أميمة لإعداد طنجرة لحمة الضأن كعادتها، ولطعم يدها في الطبيخ. ثم كلفنا إنتصار هذه المرة بالقهوة . قصدنا إعفاء مودة لأنها ينتظرها الكثير.

مدّ أحمد السيجارة التي قام بلفها إلى وليد ليشعلُها. اندهشت

علوية من استلام وليد لها ، وكذلك باقي بناتها. قالت متعجبة:

- أجى .. ما قلتوا ما بشرب!!.

إن المايشرب هذه، كانت المقصود بها الدخان والخمور أيضاً. إن مفردة ال -شراب- تُستخدم عندهم للتعبير عن الفعلين. أجبتها دون أن يلتفت عليها:

- بقى يشرب.

قصدتُ اختصارها بهذه الإجابة "أصبح الآن يشرب". لأن أي إجابة أخرى ستتبعُها أسئلة أخرى مثل، متى؟، ولماذا؟، وكيف؟.. إلخ.

مما سيضايق وليد ويحشرهُ في مربعات لا قبل له بمواجهتِها. ولذلك أجبتها ثم واصلت حديثي مع أحمد.

أشعل وليد السيجارة، وبعد عدة أنفاس أصبح أكثر انسجاماً مع جو القعدة. يضحك عندما نضحك، ويُداخل أحياناً بتعاليق طفيفة. سألتهُ أميمة وهى تقشر في فصوص التوم عن الدخل المادي لبعض الأعمال التي يُمارسنها بعض النساء السودانيات في السعودية، مثل الرسم بالحنة وشيل الحلاوة، وغير ذلك!.

أجابها وهو يمد السيجارة إلى علوية التي تجلس يمينهُ، أنه لا

يعرف بالضبط، ولكن والدتهُ تذهب إلى واحدة من الحنانات السودانيات التي تسكن بالقرب منهم كل أسبوعين أو ثلاثة لتضع أو ترسم حنتها.

همَ أحمد بلف سيجارة أخرى، طلبتُ منهُ أن يؤجلها قليلاً، وذلك أني لا أريد أن يأخذ وليد المزيد من الأنفاس التي أخذها. كي لا يتخدر جسمهُ ولا يستطيع فعل شيء. كنتُ لا أزال أملك بعض الأمل في أن تُحل مشكلتهُ بفضل مودة.

التقط أحمد ما أرمى إليهِ وتوقف عن لف السيجارة، ثم أومأ لي برأسهِ مُتفهماً.

تحركتُ إلى غرفة علوية، ثم ناديتُ على مودة وأخذتُ منها قبلة طويلة قاصداً. ومن ثم طلبتُ منها أن تشرع مع وليد الآن. طلبت مني الانتظار لحظة قبل أن أغادر. ثم مررت على شفتيها قلم الأحمر شفاه بعد أن اغتصبت قُبلتي ما وضعت فيهما من الأحمر.

انتظرتها حتى انتهت، ثم ابتسمت لها ورجعتُ إلى الراكوبة، وقبل أن أجلس طلبتُ من وليد أن يذهب إلى مودة. نظر إلى الأسفلِ مُتردداً. رميتهُ بعد أن رفع رأسهُ بنظرة حادة، نهض جرائها من مكانهِ مستأذناً وذهب إليها.

واصلنا جلستنا بعد ذهابه كما كانت. لف أحمد السيجارة التي أوقفتهُ منها . قطعتُ ثلاث ورقات برنسيس ثم مددتهم الى أميمة كي تُعجل لنا بسيجارةٍ أخرى للقهوة.

بعد دقائق جاءت إلينا إنتصار بالقهوة على صينيةِ النيكل، والتي لفرط نظافتها تُبصر وجهك عليها دونما جهد. وزع أحمد السكر على الفناجين حسب ذوق كل واحدٍ فينا. ثم صبت إنتصار عليهم القهوة من التنكة. رشفناها بمتعة من نهم لسانهُ لفرط ما تفاقمت شُعيرات الإحساس فيه.

علقت أميمة مُشكرة قهوة إنتصار:

- غايتو .. الزول الما شرب جبنة من غرابية ما شِرب!.

قالت ذلك، وهى مُمسكة فنجانها بيدِها اليسرى، وملوحة بكف يدها اليمنى كمن يودع شخصاً مسافر دخل قطار. ومقرونة حركة يدها هذه برفع حاجبيها إلى أعلى. وكانت تشير إلى أن نساء غرب السودان هنّ أفضل من يصنعنّ القهوة . ردت عليها علوية :

- غايتو يا أختى .. أنتِ ما طقتى جبنة نسوان النوبة ساااكت.

وهذه أيضاً كانت تشير إلى أن النوباويات هنّ الأفضل في هذا المجال.

هز أحمد رأسهُ رافضاً كِلا الوصمتين. وقال إنّ الأدروبات في شرقِ السودانِ هم الأفضل دون منافس، ولا يخلو بيت أحدهم منها ويعدها رجالهم في الأسواق، وأن أصغر صبى منهم يصنع قهوةً لا تستطيع أي واحدة من بائعاتِ الشاي مجاراتها.

وفى خضم هذه المغالطةِ عن القهوة والجغرافيا شرد ذهني مع مودة ووليد. وفى أي مرحلةٍ هما الآن يا ترى؟. وهل سينجح هذه المرة، أم سيحدث مع مودة ما حصل له مع انتصار؟، و و..

فجأة، قطع تفكيري صوت وليد ينادى باسمي. هرعتُ إليه مسرعاً وأنا مشحونٌ بالتوقعات. وجدتهُ واقفاً على باب الغرفة، مرتدياً فنيلة داخلية من أعلى وبنطلون من أسفل مفتوح الحزام. وقفتُ أمامهُ ونظرتُ إلى عينيةِ المُترورقتين بالدموعِ ثم سألتهُ:

- ماذا ؟!..

مسك كفي وضغط عليه بكلتا يديهِ، ثم قال لي بصوت أجش والدموع تنهمر على خديه:

- نجحتَ.. نجحتَ!.

قالها، وكأنه لا يصدق نفسهُ. حضنتهُ حتى سمعتُ دقات قلبهُ السريعة من خلف قفصه الصدري. دفعتهُ من على الباب ودخلتُ إلى مودة التي كانت مستلقية على السرير، ومغطية جسدها العاري بِملاءة حتى نهديها. نظرتُ إليها متلهفاً الإجابة. ابتسمت لي ثم أومئت برأسِها إجاباً. اتلفتُ إلى وليد وحضنتهُ من جديد.

كنتُ أفهم ماذا يعنى هذا النجاح لشابٍ شك حتى في أهليتهُ أن يكون رجلاً كاملاً. كما كنتُ أعرف أن اليوم هو عيد ميلادهُ الوحيد الذى لا يحتاج فيه إلى هدايا من أحد. لأن هديتهُ الكبرى قد منحتها له المرأة التي أصدرت آهات لذة وهو من فوقها، أعنى المرأة التي منحتهُ الاعتراف.

طلبتُ منهما أن يأتيا إلى الراكوبةِ ليشاركانا القهوة. ثم رجعتُ وأنا أحاول أن أجعل ملامح وجهى خالية من التعبير. فقد كانوا جميعهم ينظرون إليّ متلهفون الإجابة على السؤال الذى لن يُطرح.

نظرتُ إلى أحمد وهو يُحاول أن يقرأ شيئاً من على عينيّ، ثم قلتُ له:

- مبروك!.

تشاطرنا الابتسام، ثم التفتنا إلى إنتصار التي نظرت إلى أسفل. ثم أطبقت شفتيها وحركتهما يميناً وشمالاً بسرعة، ثم أصدرت صوتاً لا يُكتب.

دخل وليد الراكوبة وابتسامةً عريضةً تعلُو وجههُ، غير مبالٍ هذه المرة بالنظراتِ التي كانت تتبعهُ. جلس على مقعده السابق نفسهُ، ثم جاءت بعده مودة. ناولتهُ أميمة فنجان قهوة ثم طلب من أحمد أنْ يمدَ له سيجارة الدخان التي كانت في نصفها الأخير.

أمعنتُ النظر في وليد وهو ينفثُ دخانَ السيجارةِ، ويرتشِف القهوةَ بمتعةٍ فريدةٍ، وأزرار قميصهِ الثلاثة الأولى مفتوحة. أدركتُ حينها، وحينها فقط أنه مثل الكثيرين الآن الذين رحلوا إلى أسفل قاع المدينة!،

حيثُ كلِ أنواعِ الشراب ..

ورائحة الجنس المُخمرِ،

وأساطير البطولة، هناك ..

حيثُ تُناجى الأماني بالمخيلةِ.. وتموتُ الأشياء

(٧)

»عاش ليموت..« !

كانت هذه هي كل القصة التي فاز بها أحد المشاركين، في واحدة من المسابقات التي تُنظمها إحدى المجلات الشهرية عن القصةِ القصيرة!..

استحضرتُ هذه الأحدوثة بينما كان يحكى لنا وليد في الجامعة عن مودة بعد عدة أسابيع من آخر ليلة لنا في بيت علوية. كان يتكلم عنها وعينه طافحتين بالحياة والعنفوان، فكأنه "عاش ليجدها!"

فبعد نجاحه معها، أصبح لا حديث له سواها. ينام على ذكراها ويصحُو، يتكلم معها مدة طويلة على الهاتف. وأكثر من مرة في اليوم الواحد.

أصابتني الغيرة في مكانٍ ما لم أحسه من قبل. أهو ذلك الإحساس الغريب بفقدان شيء كنتُ أتوهم بامتلاكي له؟.

أم أننا لا نعرف قيمةَ الأشياءِ إلاَّ بعد فقدانِها ؟!..

في آخر اتصال لي معها قبل يومين، لم أشعر بتلهُّفِها لصوتي كما كانت تفعل. كما أنها لم تذكر اسمي عند فتحِها لخط الاتصال، وقبل كل شيء كما كانت تفعل . وكانت أول ما سألتني عنه هو وليد!.

أدركتُ حينها أنها تسربت من بين أصابعي عن طيب خاطر. ابتلعتُ كبرياء الرجل الشرقي الذى يحق له أن يلفظ المرأة، ولكن لا يصح أن تتركهُ هي.

بالطبع، لم يكن الأمر يتعلق بالفحولةِ، فقد كنتُ الأفضل في هذا المجال. كما أنها أخبرتني في ذلك اليوم أن وليد استطاع الانتصاب ولكن سرعة القذفِ عنده لا تزال!.

ولكن يبدو أنهُ منحها شيئاً عجزتُ أنا عن منحِها إياه.. وهو العاطفة. إن وليد قد صب فيها جم سنين حرمانه. وتعامل معها كمنقذة أكثر من تعامله معها كداعرة. وأنا لم تكن بالنسبة لي سوى وعاء تفريغ لنزوات وصلت أقصى حدود اللا احتمال.

اقتنعتُ أخيراً بما قالهُ لي أحمد أن أتركهما وشأنهما. وعليّ أن أنظر إلى نصف الكون المملوء. وهو حقيقة أن مودة داعرة مُحترفة أستطيع أن أستبدلها بغيرها عشرات المرات، فأنا أعرف مداخل تلك الأماكن ومخارجها.

ولكن ورغم كل شيء يجب إيفاؤها حقها المناسب. فهي استطاعت أن تنقذ وليد من هاوية سقوطهِ النفسية، وأخرجتهُ من حجرِها رجلاً مُعتزاً بذاته على الدوام. طرفتهُ حاضرة وله روح مرحة لم نعرفها عنهُ من قبل.

وكنتُ أتفهم أن من الطبيعي أن يرتبط بها كل هذا الارتباط. فهي الأنثى الأولى في حياتهِ، وعلى يديها تعلم أن يكون.

نهضتُ من النومِ في الداخلية في صباحٍ أكاديمي كسول، وأنا مُثقل بالكثير من الواجبات التي عليّ إنجازها. تبقى للامتحانات أيام قليلة، وكان عليّ أن أجمع مُلخصات كل الموادِ تقريباً، وأصنع منها نُسخاً ومن ثم أحاول أن أذاكر ما يمنحني نسبة المرور، أو الرسوب في مادة أو اثنين على أسوأ تقدير. فلا طاقة لي باجترار هذا العام أيضاً، يكفي إعادة العام الماضي.

أخذت حماميّ الصباحي، ثم اتصلتُ ببعض الزملاء لتوفير المُلخصات لي، وعزمتُ أنْ أنذر يومي هذا للدراسة كطالبٍ جامعيٍ مُجتهد. وفي أثناء طريقي إلى الجامعة استقبلتُ مكالمة غيرت ما عزمتُ القيام به.

اتصل بي أحمد وأخبرني أنّ وليد لم يأتِ إلى الكلية، وهذا

اليوم الخامس لغيابهِ، وهاتفه مغلق!.

أعلمتهُ أنيّ في الطريقِ واتفقنا أن نلتقى بعد ربع ساعة في مكان مُحدد في الجامعة.

كان هذا الخبر الذى زفهُ لي أحمد قد عكر مزاجي، فبعد مكالمتهِ مباشرةً اتصلتُ بمودة وسألتها منه. أخبرتني بأنه ذهب إلى رئاسة اللواء وسيعود. طلبتُ منها أن تخبره أن يقوم بالاتصال بي.. ثم قفلتُ الخط.

إن وليد في الفترةِ الأخيرة أصبح بعيداً جداً عن الجامعة وأجوائها. لا يتكلم بتاتاً عن الأكاديميات كما كان يفعل. يتغيب عن المحاضراتِ وبدون سببٍ واضح، وإذ ما اتصلنا به.. يُخبرنا أنه في سويا.

قد نكث بالعهدِ الذى أبرمناهُ ثلاثتنا قبل أسبوع، والذى ينص بأن نبذل كل الجهود استعداداً للامتحانات. والتقليل من الدخان، وعدم الذهاب إلى بيت علوية إلا بعد نهاية الامتحانات.

فقد توقفنا أنا وأحمد من الذهاب لبيت علوية ما يقارب الشهرين. وكان وليد يُواظب الذهاب هناك كل يومين أو ثلاثة تقريباً. فقد استخدم الامتحانات كذريعة ليقنع بها عمتهُ أنه

عاكف مع بعض الزملاء في الداخلية لمراجعة المواد الصعبة. فتسمح له بذلك وتعطيه مصروفاً إضافياً. يذهب وحده إلى نفق الجامعة لإنجاز الدخان إذا كان معنا في الداخلية. وصبيحة اليوم التالي يُغادرنا إلى سوبا ويظل في بيت علوية مع مودة عدة أيام.

أصبح يذهب وحده لرئاسةِ اللواء ويجلب الدخان. كما أصبح خبيراً بتلك الدروب التي لطالما تأفف منها. يلف سيجارة الدخان وكأنه قد خبر فعلها قبل عشرات السنين. يتكلم لغة الرندوقِ بأريحيةٍ واضحة، وهى لغة أنتجها الشباب في القاع، ليُعوِضوا نقصهم بتميزهم عن العامة بشيء مُختلف!. وهى تعتمد على قلب الكلمات رأساً على عقب، وإذا تكلم بها أحدهم لا يستطيع آخر أن يفهمهُ إلاَّ من نفس الوسط. تعلمها وليد ليكون منهم، وقد كان!

وصلتُ الجامعة، كان أحمد في انتظاري في المكان الذى اتفقنا عليه. سلمتُ عليه ثم جلسنا على أحد البينشات تحت شجرة جميزة وريفة الظل. بدأ أحمد يتكلم عن أن هذه الفترة وأهميتها للطلاب، لأن المحاضرين يُعيدون شرح ومراجعة المسائل المستعصية على الطلاب. وأنه قد أخبر وليد بهذا ولم

يكترث.

ثم أخذ يُكلمني عن اختلاف شخصية وليد من ذي قبل، وفجأة سألني:

- أتظن أن مودة وراء كل ذلك؟!.

- لا أدرى، ربما..

هكذا أجبتهُ ببرود من أصبح يتوقع كل شيء، سألني وكأنه توقع إجابتي تلك:

- ولكن .. لماذا لم يحدث ذلك معك أنت؟!

قلتُ له مُحاولاً شرح ما أعتقده:

- إن مودة هي أول امرأة مسها وليد. وإن كل هذا الارتباط بها لا يخرج من كونها المرأة الأولى في حياتهِ. وكان سيكون نفس هذا التعلق مع إنتصار ان كان قد نجح معها.

ومودة الآن بالنسبة له كل الأنوثة، وهو بالنسبة لذاتهِ كل الرجولةِ التي لا تكتمل سوى بين فخذيها.

إن تجربتهُ مع إنتصار قد هدمت فيه أية فكرة جيدة كان يمكن أن يكونها عن نفسه. ثم جاءت مودة لترمم كل الذى هشمتهُ

فيه انتصار. وقد نجحت في ذلك لما لها من لطافة وحِنكة كانت تعوز إنتصار..

ولذلك تعلق بها وليد لهذه الدرجة، لأنه معها ومعها فقط استطاع أن يشعر بذاته التي يريد أن يكوِّنها.

- وماذا يمثل هو بالنسبة لها ؟!..

باغتني بهذا السؤال حقيقةً، فقلتُ له:

- لا أدرى.. قد تكون أحبتهُ أو ...

قاطعني مُكملاً:

- أو .. جيب لا ينضب.

- بالضبط..

ثم واصلتُ:

- إن وليد هو الشخص الوحيد من الذين عاشرتهم مودة، لم يعاملها كداعرة أكثر من تعامله معها كحبيبةٍ أو منقذة..

ولذلك عندما طلب منها قبل شهرين أن تتوقف عن ممارسة الدعارة، وتكون خاصتهُ لم ترفض ذلك الطلب.

هذا إضافة أن فيه من المواصفات ما لا تستطيع أية أنثى أن تقاومه، فما بالك بداعرة؟!..

قاطعني هاتفي وهو يرّن. أخرجتهُ من جيبي فكان ذلك وليد . يبدو أن مودة أخبرتهُ باتصالي بها وسؤالي عنه. سلمتُ عليه ثم سألتهُ:

- متى تنوى الرجوع من سويا ؟.

- لا أدرى، لم أحدد بعد.

- هل تستطيع أن تأتي اليوم؟، نريدُ أن نتكلم معك في موضوع.

أجابني وكأن طلبي هذه قد صادف شيئاً لديه:

- أنا أيضاً أريد أن اخبركما بأمرٍ ما يشغل تفكيري!. هل أحمد معك؟..

أجبتهُ أنه بجواري الآن، فطلب منى أن أبلغه تحياتهُ. ثم توادعنا على اتفاق أن نلتقى ثلاثتنا في الداخليةِ مساء اليوم.

إن في صوت وليد شيئا ما غير مُطمئِن. وهذا ما أخبرتُ به أحمد بعد المكالمة. شغل بالنا ذلك الأمر الذى يريدُ إخبارنا به. قررنا أن لا نستبق الأحداث، فسنعرف كل شيء بعد ساعات.

افترقنا على أن نلتقى مساءً مع وليد فى الداخلية. ذهب هو إلى المكتبة، واتجهتُ أنا إلى الكلية لأستفيد مما تبقى من زمن

في إنجاز بعض ما قررتُ القيام به صباح اليوم.

انقضت ساعات اليوم بسرعةٍ، وأنا متنقل بين الكليةِ والمكتبة. أجمع مُلخصات هذه المادة وتلك. أنسخها ثم أُعيدها لصاحبها شاكراً . وهكذا ، أبحث عن التلخيص الأفضل والخط الأوضح للمادة، وأقوم بنفس الدورة من جديد في المادة الأخرى.

انتبهتُ إلى أنى لم أتناول شيئاً مُنذ الصباح !. قررتُ أن أذهب إلى إحدى الكافتريات الرخيصةِ في الجامعة لتناول سندويتش طعمية، وقارورة مشروب غازي الذى بدونه يصعب هضم طعمية الجامعة. ثم أعود بعد ذلك لمواصلة النسخ قبل أن يحل المساء الذى لم يتبقَ له سوى القليل.

وفى أثناء طريقي إلى الكافتيريا رنّ هاتفي الجوال، فأخرجتهُ مُتوقعاً أنه أحد الزملاء في الكلية. كانت المفارقة في أن المُتصل هو وليد. أخبرني أنه في الداخلية وهو الآن في انتظارنا.

تعجبتُ جداً أنْ يحضر قبل موعدهِ معنا بساعتين!. اتصلتُ بعد مكالمتهِ مباشرة بأحمد سائلاً عن مكانهِ، فأخبرني أن وليد اتصل به وهو الآن في طريقه إلى الداخلية.

أقلقني حضور وليد بهذه السرعة. وسعيه أن يقابلنا أنا

وأحمد في وقت واحد!. كما أنَّ نبرة صوتهِ تلك قد ذهبت بذهني بعيداً.

فكرتُ في شيءٍ تمنيتُ أن لا يكون هو ما يريد إخبارنا به. وصلت إلى الكافتيريا واشتريتُ ساندويتش الطعمية، ثم أخذتهُ معي وتوجهتُ صوب الداخلية.

كان أحمد قد وصل قبلي. وجدتهُ مع وليد ينتظراني عند البوابة. سلمتُ عليه ثم اقترح وليد بسرعة أن نذهب إلى المسرح، ما يعنى أنه يحمل معهُ دخان كالعادة.

كان في ملامحهِ شيء ما. شيء لم أشاهده عليه منذ نجاحهِ مع مودة. لحيته لم يحلقها منذ عدة أيام، وعينيه مُحمرتين بخليطٍ من التعبِ والاكتئاب!.

جلسنا في مكاننا المعهود خلف المسرح، أخرج وليد من جيبه دفتر برنسيس ناقص، وسيجارة دخان. ثم مدهما إلى أحمد وطلب منه أن يلف لنا سيجارة.

بادرتُ، وسألتهُ ماذا جرى ليكون بكل هذا البؤس؟!. نظر إليّ بتهكم وفتور، ونظر إلى أحمد. ثم قال ببرود وهو يُحوّل نظرهُ صوبي للمرةِ الثانية:

- مودة.. حامل!!.

صرخنا أنا وأحمد في وقت واحد:

- ماذا ؟!!.

أجابنا بالبرودِ ذاته:

- مودة حامل في شهرِها الثاني.

صفعنا هذا الخبر. إذ إنه آخر ما كنا نتوقعه. توقف أحمد عن لف السيجارة. نظرتُ إليه فكان ينظر إليّ. نظرنا إلى وليد الذي أخذ يتجوَل بنظرهِ بيننا وفى عينيهِ تهكم لم نعرف معناه إلا بعد مدة. صمتنا لفترة، ثم سأله أحمد:

- لماذا لم تخبرنا بذلك من قبل؟.

أجابهُ وليد:

لأننا لم نعرف بذلك سوى مؤخراً بعد أن استخدمت شريط اختبار الحِمل. ومنذ ذلك الحين لم يغمض لي جفن وذهب تفكيري في كل حدبٍ وصوب. إضافةً إلى أنّي لم أكن أريد إزعاجكم..

لم يُقنعني مُبرره هذا لعدم إخبارنا، فسألتهُ لأختصر كل الذى يمكن أن يُقال:

- وإلى ماذا أوصلك تفكيرك؟!.

أجابني مُتذمراً وهو يُشعل سيجارةً عادية:

- لم يُوصلني لشيء.

صمتنا لفترة، استأنف أحمد لف السيجارة التي كنا في أمس الحوجة إليها الآن . قال وليد وكأنهُ تذكر شيئاً:

- أنا أريدُ هذا الطفل!.

وكأني فهمت ما يرمي إليه، وأن هذا اللا شيء الذى لم يتوصل إليه كان يعنى به شيء مُقنع للجميع، ولذلك سألتهُ:

- إذن؟!.

قال وقد تحوّل برودهُ إلى حِدة:

- إذن.. سأتزوجها!.

صرخ فيه أحمد مستنكراً:

- ماذا؟!.

أجابهُ وليد، وقد بدأ أكثر حِده:

- سأتزوجها لأنى أُحبها، وهذا الطفل طفلي.

قال له أحمد وهو يهز رأسهُ مُحبطاً:

- أوه .. بربك يا وليد أنها داعرة.

قال له وليد مُبرراً:

- كانت كذلك، وقد توقفت عن هذه المهنة منذ أن طلبت منها ذلك قبل أكثر من شهرين.

يبدو أن وليد لم يعرف عالم الداعرات جيداً إلى الآن، قلتُ له لأوضح أمراً حتى لا يفوتهُ:

- إن ممارسة الدعارة مثل تعاطى الهيروين يا وليد، تقودُ إلى الإدمان الذى يصعُب الفكاك منه بسهولة.

ومودة داعرة مُحترفة، مارست هذه المهنة حسب معرفتي لأكثر من عامين. ولم يمضِ لمعرفتِك بها سوى أشهرٍ قليلة. ثم توقفت عن معاشرة الآخرين بطلبٍ منك قبل شهرين.

ما الذى يضمن لك أن لا ترجع لممارسة هذه المهنة من جديد؟. هذا إن لم تكن تمارسها الآن وأنت لا تدري!.

ثم قل لي بربك، ما الذى يضمن لك أن هذا الطفل الذي في أحشائِها طفلك أصلا ؟!.

نهض من مكانهِ مُنفعلاً، ثم قال لى مُوجهاً إصبعهُ نحوى:

- لن أسمح لك أن تقول عنها ذلك مُجدداً..

قال هذه الجملة وقد انتفخ وجههُ من الانفعال وارتعش إصبعه

المصوب نحوي، قالها .. ثم غادر.

نادى عليه أحمد باسمه فلم يتوقف ولم يلتفت حتى. ربتتُ بكفي على كتف أحمد وقلتُ له:

- دعه .. دعه يا أحمد، لا بد له أن يعود.

بدأنا بتدخين سيجارة الدخان التي تركها لنا وليد، ثم تركني أحمد مع السيجارة وذهب إلى أدروب بائع القهوة في الداخلية، وأحضر لنا كوبين من قهوة بسكرٍ خفيف. تناولناهما مع السيجارةِ حتى يخففان من الصداع النصفي الذى أصاب دماغينا جراء الذى قاله لنا وليد.

لم نتفوه بالكثير عن هذا الموضوع، فلم يكن هناك ما يُقال !. جاءنا وليد وقد اتخذ قراره بالزواج منها مُسبقاً. ولكن أحمد لفت انتباهي إلى نقطة مهمة للغاية، وهى لماذا لم تحمل مودة طيلة ممارستها للدعارةِ من أي زبونٍ آخر، ليحصل ذلك مع وليد؟!. وهى الخبيرة التي لا تفوت احتمالية حملها. فهل فعلت ذلك عن قصد لتُوقعِ به؟!.

حسب خبرتنا بعالمِ الداعرات أن هذه وسيلة معروفة ليستبقينّ الزبون الذى يُفضلنّ. ويُفضلنّ هذه تنطبق على الزبون الذى يرون فيه منقذاً، يمكن أن يقبل الزواج منهنّ في مثل هذه

الحالة. وينقلهنّ من مستنقع الدعارة إلى الحياة الطبيعية التي يفتقدنها، دون هواجسٍ أو عُقد ما كنّ عليهِ في الماضي.

وهناك أيضاً احتمال آخر مُرجح، وهو أن هذا الحِمل قد نتج عن هفوةٍ من مودة، وكان لا بد من أحد أن يدفع الثمن.. واختارت وليد!.

أو أنها فعلاً توقفت عن مُمارسة الدعارة، وجاء هذا الجنين من وليد عن غير قصد، واقترح وليد بمروؤته المعروفة الزواج منها ليُحافظا على طفلهما. وإن كان كذلك كيف لم تعرف مودة أنها حُبلى سوى مؤخراً، وهي الخبيرة أيضاً بمثل هذه الأمور؟!.

شَغلت هذه الأسئلة وغيرها تفكيرنا. ثم قررنا أن نتصيد الفرصة السانحة لنتكلم مع وليد بصراحة عن هذا كله. وذلك قبل أن يقدمِ بانفعالهِ هذا إلى خطوة تكون لها عواقب كارثية.

نهضنا صبيحة اليوم التالي ونحن مُثخنِين باحتمالات. منذ ليلة البارحة ولم يتصل بنا وليد. هاتفه المحمول مُغلق وكذلك هاتف مودة. لم نفكر في الاتصال بعلوية أو واحدة من بنتيها الأُخرتين، قد يكنّ لا يعرفنّ شيئاً ولم نرد إثارة الشكوك. إضافةً أن كلينا لم ينم جيداً، فقد أرقت مضجعينا التساؤلات.

ذهبنا إلى أدروب احتسينا فنجانين قهوة بسكرٍ خفيف، ثم اتفقنا أن نُبدد ساعات اليوم في الأكاديميات إلى حين اتصاله بنا. دخلنا الجامعة مع بعضنا ثم افترقنا. ذهب أحمد إلى واحدة من المجموعات التي تشرح بعض المواد، واتجهتُ أنا إلى المكتبة العامة للمذاكرة.

كانت الثواني تركض، والدقائق تمشى، والساعاتُ تحبُو منهيةُ نهاري في المكتبة وأنا بين السطورِ والشرود، وهمتُ نفسى بالمذاكرة ولم أكن أقرأ سوى كتاب مودة ووليد.

حلَ علينا المساءُ ولم يتصل بنا وليد، وهاتفه المحمول لا يزال مُغلقاً. تقابلتُ مع أحمد في الداخلية، وقررنا أن نجتز هذا القلق من جذورهِ ونذهب إلى سوبا غداً. فلا بد أنهُ هناك. ونطلب منه تأجيل كل شيء إلى بعد الامتحانات التي تبقى لها يومان فقط.

إنه يدرس بالانتساب وسيُفصل من الجامعة حسب اللائحة إذا لم يُسجل حضوراً في قاعةِ الامتحانات بسببٍ مُقنع. وبذلك يكون العام الدراسي والنقود التي دفعها قد ذهبا في أدراج الرياح.

ركبنا في اليوم التالي الحافلة المتجهة إلى سوبا بسرعة، فلم

يكن الموقف العام للحافلاتِ مُزدحماً. ثم وصلنا إلى سويا بعد شهرين من الغياب.

نزلنا في بداية أقصى شارعِ لبيت علوية. وكانت هذه المرة الأولى التي لم ننزل فيها في غرفةِ جوكس، أو أقرب نقطة لرئاسة اللواء.

وصلنا إلى بيت علوية، ودفعنا كعادتنا الباب ثم دخلنا. كان به هدوء يشي بالارتياب لم نعهده فيه من قبل . فلا صوت ضجيجٍ وضحك يستقبلنا منذُ فتحنا للباب، ولا رائحة طلحٍ أو شاف تُداعبُ أنفينا قبل وصولنا إلى الباب. وحتى شجرة اللالوية قد تعرت من صفقها كما يحدث لها دائماً في مثل هذا الفصل من العام.

إن أميمة كانت أول من صادفنا في فناء البيت، تنشر بعض الملابس على حبل الغسيل. استقبلتنا بابتسامة لطيفة مصحوبة باسمي عند مدّ كفها إليّ مُصافحة، ومقرونة بمفردة -مشتاقين- عندما حضنها أحمد طابعاً قُبلة على خدها الأيمن.

سألتنا عن المذاكرة والامتحانات، فأجبناها كما نجيبها دئماً، تمام التمام.

ثم سألتها عن مودة على أمل حين تدلُني على مكانها تقرن

اسمها بوليد. أُحبطتُ عندما أخبرتني أنها مع علوية في الراكوبة.

أحسستُ بفقدانِ شيء تعودتُ عليه، وهو خروج مودة وركضها نحوى بفرحة الأطفال عندما تسمع صوتي، وترتمى في حُضني مثل وداعة عصفورة.

تخيلتها تفعل ذلك مع وليد الآن، فيُلاقيها فاتحاً ذراعيه مُرحباً . تملكتني الغيرة في مكانٍ ما، وما الغيرةُ سوى أنها انفضاح أنانيتنا اتجاه من نُحِب.

دخلنا الراكوبة، كانت علوية مُستلقية على أحد الأسرة، ومودة جالسة على الكرسي المجاور لها وعيناها تشيان بحزنٍ عميق. ويبدو أنهنّ كانتا تتحدثان عن أمرٍ وتوقفتا عنه عند سماعهن صوتينا نتكلم مع أميمة في الخارج.

سلمنا على علوية، ولم أستطع مقاومة رغبتي في احتضان مودة. ضممتها مُتجاهلاً مدت يدها بالسلام. حتى أحسستُ بنهديها يضغطان على صدري. غمرتني رائحة جسدها المركونة في أقصى الذاكرة. شعرتُ بأنفاسها تعلو وتهبط. أحسستُ في مكانٍ ما أنها لا تزال تحبني!.

اشتهيتها .. كما لم اشتهها من قبل. تمنيتها.. وكأنها لم

تنم بجواري عشرات المرات.

أتراني كنتُ أحبها ، أم أحب انفضاحها بي ؟!.

تذكرتُ فجأة وليد. ابتعدتُ عنها بشكل مفاجئ مُتجاهلاً نظرات التعجب في عينيها. لأنه ورغم كل شيء، لم أكن من الرجالِ المفطورين على طعنِ أصدقائهم من الخلف حتى وإن تعلق الأمر بداعرة.

وبمعزل عن أي شيء، فمبادرة وليد بالزواج منها كفيلة وحدها للتدليل على صدق حبهِ لها وشهامتهِ.

جلستُ بجوار أحمد على السرير المقابل للذي تجلس عليه علوية. بادر أحمد وسألهم عن وليد. نظرت مودة إلى علوية التي تغيرت ملامح وجهها!.

لم يخب حدسي إذن، بأن هناك شيئا قد حدث. لم أطق الانتظار فسألتهنّ ما الذى جرى؟!.

وقبل أن يُجبنّ على سؤالي دخلت إنتصار. سلمت علينا وجلست قرب علوية، ثم جاءت أميمة وجلست على المقعد المجاور لمودة.

كررتُ السؤال من جديدِ. صمتنّ لفترة ثم قالت علوية بلهجةٍ

غاضب:

- والد وليد وعمته جو هنا!.

وكأنهُ قد وقعت علينا صاعقة، سألتها من جديد لأنني فعلاً شككتُ في أنّي قد سمعت ذلك:

- قلتي شنو .. شنو؟!.

فأردفت مواصلة سرد الذى حدث ومتجاهلة التعجب في ملامح كلينا:

- اليوم الصباح جونا مع وليد على شان إشوفوا مودة!.

سمرنا هذا الخبر مكاننا فاتحين أفواهنا دهشةً. طلب منها أحمد أن تُواصل. صمتت لبرهةً ثم أشعلت سيجارة وهى تقول:

- هم ما قعدوا حتى. قالوا عننا الما قالوا غيرهم، ونزلوا فينا شتيمة وسب وسمعوا القريب والبعيد.. والله لو ما مسكتينى منهم أميمة، كنت عملت فيهم السبعة وزمته.

رفعت أميمة كتفها الأيمن قليلاً، ثم قالت وهى تلوح بيدها مستنكرة :

- مودة ما طلبت منه أنه يتزوجها ، هو الطلب منها كدا.

كل ذلك وإنتصار صامة شمتاً، ومودة لم تقل شيئاً كان فى

عينيها حزنٌ لم تغسلهُ دموعها المنهمرة، وهى تستمع إلى علوية وهى تُعيدُ علينا قص ما حدث هذا الصباح.

■■■■

سأل أحمد مودة مستدركاً:

- ومن متين والد وليد جا السودان؟!.

ردت عليه وهى تمسح دموعها بِيدِها:

- أمس بعد ما اتصلت بيه عمته!.

واصلنا رشقهم بالأسئلة، تارةً تجيب مودة. وأخرى ترد علينا علوية حتى لململنا أشلاء كل الذى حدث.

يبدو أن وليد عندما غادرنا تلك الليلة. ذهب إلى بيت عمتهُ، ثم اتصل بمودة وأخذ يكلمها عبر الهاتف عن موضوع الزواج. وسمعتهُ عمتهُ بالصدفةِ، وطلبت منه توضيح الذي كان يقوله عبر الهاتف؟.

حاول أن يتحايل عليها فضغطت عليه أكثر أن يخبرها الحقيقة. انفجر فيها وليد وأخبرها بحماقة المُحب المُكتئب أنهُ يعشق فتاةً تُدعى مودة، ويرغب في الزواجِ منها دون أن يضع مبررات أو يوضح لها الأسباب.

مـا كـان من عـمـتـهِ إلاّ أن اتصلت بوالدهِ في السـعـودية، وأخبرتهُ ما يعزم ابنهُ القيام به.

ذُعـر الوالد من هذا الخبـر، واستطاع أن يتـدبر أمـر تذكـرة بسرعـة، وحضـر إلى السودان في اليوم التـالي للحيلولة دون وقوع الكارثة المرتقبة التي ينوى ابنه القيام بها.

ولم يكن منطقيـا بالنسبة له -بأي حال- أن يُقرر ابنهُ الزواج فجأةً، وفى هذا الوقت بالذات وبدون مناسبة. فقد أرسله إلى السودان ودفع فيه ما دفع ليتحصل على شهادة جامعية. فإذا به ينوي أن يأتيه بقسيمة زواج!.

ثم .. من تكون تلك الفتاة التي خلبت قلبَ ابنه وعقلهِ ليقرر الزواج منها بهذا الشكل وهذه السرعة؟!. وبعد مفاوضاتٍ طويلة استطاع إقناع وليد أن يقوده إليها لرؤيتها.

ولم يصدقا عينيهما عندما اصطحبهما وليد إلى سوبا. إذ كيف تسنى لابنهم أصلاً أن يعرف مثل هذه الاماكن؟. ومنذُ متى يأتي إلى هنا. بل ولماذا يحتاجُ إلى ذلك وهو بنى الشأو الرفيع ؟!.

وكان الجزء الأكثر إثارةً للحنق لدى وصولهم بيت علوية، ورؤيتهم لمودة، تلك الأميرة التي كان يُخطط ابنهم لخطفها.

استفزهما كل الذى رؤوه، وما كان منهم سوى أن انفجرا فيهم، وأهالوا علوية وبناتها بكل ما تذخر به ذاكرتهما من الشتائم والسُباب.. ثم أخذا ابنهما وغادرا.

تالله ما أشد جُرأتكِ يا وليد، بل هذه جرأة وصلت بك حد الوقاحة. فمما لا شك فيه أن مودة ستُرفَض من قِبل أهلِ وليد -وبغض النظر عن أي شيء- فكونها تنتمى إلى واحدة من القبائل العربية في دارفور كفيل وحده لرفضها من أهلهِ!.

إذ إن وليد ينتسب إلى واحدة من قبائل النوبيين المستعلية في الشمال، والتي لا تُزوج أبناءها وبناتها إلا من داخل القبيلة نفسها.

إضافةً أن مودة لا وكيل لها هنا ولا ولي غير علوية الحلبية، والتي تُصنف -حسب معيار رختر السوداني لتصنيف الأجناس- أنها أقل مرتبة اجتماعية حتى من مودة نفسها. ناهيك من أنهنّ يسكنّ سويا الأراضي، أو إذا تسنى لهما أن يعرفا أنهنّ داعرات.

فهل تغابى وليد عن كل هذا؟ أم استوى حبهُ على نار هادئة أذابت من جرائها الطبقات في مجتمعٍ لا يزال تحكمهُ ذاكرة القبيلة، وينتسب أفراده لها أكثر من انتسابهم للوطن ذاته!.

أصابنا الذى سمعناه بكآبة شديدة، ولم يكن بوسعنا أبداً تحمل المزيد من الضغوط. بعد غدٍ اليوم الأول للامتحانات وكان علينا الكثير لإنجازه.

جئنا هنا لنطلب من وليد تأجيل كل شيء إلى بعد الامتحانات، وإذا بكل شيء قد انفجر قبل الامتحانات بيومين.

ثم ماذا يا ترى فعل والدُهُ لهُ؟.

وماذا لو أن وليد أماط له اللثام عن حقيقةِ أن هذه المرأة التي ما دأب على شتمِها، تحملُ في أحشائِها حفيدهُ الأول؟!.

أو أنه واجههُ بأن هذه المرأة وجد عندها ما لم يعوضهُ له صابونهُ الفاخر في الحمامات الحديثة في الرياض.

قالت علوية بعدما رأت سحابة الاكتئاب تعبر وجهينا:

- لو سمعتوا كلامى، كان حلينا المشكلة دى وخلِصنا.

سئلتها مستفسراً:

- أي كلام؟!.

أجابت إنتصار مُوضحة:

- علوية قالت بتعرف ليها داية ممكن تنزل الطفل!.

كان هذا الاقتراح أول ما نتوقعهُ من علوية، وآخر ما يخطر على بالنا. إن فكرة إجهاض طفلٍ قد دخل في شهره الثالث عن طريق قابلة، كانت مرفوضة من قِبلينا أنا وأحمد ومن وليد قبلنا. وذلك لما في ذلك من خطورة قد تعرض مودة نفسها إلى الموت.

في أثناء انشغالنا بإقناع علوية بالعدول عن رأيها، سمعنا صوت باب الشارع يفتح. مدت إنتصار رأسها مُسترقةً النظر من بين فتحات الحصير لرؤية من أتى. التفتت علينا بسرعة وقالت:

- دا وليد ركضت إليه مودة فرحا وتنفسنا نحن الصعداء.

دخل علينا في الراكوبة واضعاً يده على كتف مودة. وكان على وجههِ تعب غطى على جمال محياه.

اغتبط عند رؤيتنا أنا وأحمد وسلم علينا بحرارة . ثم سلم على علوية وبنتيها الآخرتين وكأن شيئاً لم يكن. جلس على المقعدِ الذى كانت تجلس عليه مودة وأجلسها على فخذ قدمه اليمنى.

تأملتهُ .. كانت لحيتهُ أكثر غزارةً من آخر مرة رأيناه فيها. وجسدهُ أكثر نحولاً من المعتاد ما يُحِيل إلى أنه مُواظب على

التدخين يومياً.

سألنا عن الجامعة، وأخبرناه كما يعلم أن الامتحانات بعد غد. ولا يوجد استعداد كافٍ لها. ثم بادر أحمد وسأله:

- ماذا حدث مع والدك وعمتك بعد الذي دار هنا؟.

نظر وليد على الأرض، وتنفس عميقاً ثم رفع رأسهُ وقال دون تفكير:

- إن أبي سيرجع إلى السعودية بعد غد.

ثم أضاف بعد وقفة:

- وأنا برفقتهِ!.

هالنا هذا الخبر جميعاً، هبت مودة منتصبة فى مكانِها كمن أصابه مسٌ من الجن. وقفت قصادهُ وسألته وهى فاتحة عينيها ملء الدهشةِ:

- ماذا تقصد؟!.

أجابها ببرود من توقع ردة فعلها هذه، وعينيهِ مُترورقتين بدموعٍ تُقاوم أن تنزل:

- منذُ رجوعنا أدراجنا، وأبى وعمتي لم يتكلما معي بتاتاً سوى إخبارهما لي أن أعد نفسى للسفرِ بعد غدٍ إلى

السعودية!.

رفضتُ هذه الفكرة طبعاً رفضاً شديداً. وتحججتُ بكلِ الحيل التي أملكها. وكلمتهما عن الجامعة والامتحانات، ولم أجد عندهما آذاناً صاغية. وما زاد الطين بلةً هو استعانتُهم بوالدتي التي أخبرتني إن لم أرجع مع أبى لن تمنحني عفوها.

صمتنا لفترة، ثم سألته:

- ولكن، ماذا قال بخصوص الجامعة؟.

أجاب ولا يزال ينظر إلى مودة:

- يبدو أنى سأقطع دراستي هنا وسأواصلها هناك.

سألتهُ مودة بصوتٍ خفيف، والدموع لا تزال تجرى على خديها:

- وأنا ؟!.

لفظتها.. دون أن تفتح فمها. خرجت من بين أسنانِها مُشبعةً بفاجعةِ الاحتمال.

عمنا صمت الترقُب، فال"أنا" هنا تتضمن في طياتِها الكثير من الضمائر، فقد تكون ضمير المُتكلِم "أنا"، أو قد تكون "نحن" إشارةً لها وله. كما يمكن أن يكون ضمير الغائب

"هو/هي"، وهذا الغائب هو طفلٌ في أحشائِها مجهُول المصير.

ماذا في وسع أبٍ أحبتهُ، وفي يومٍ ما وضع شيئاً منهُ في جوفِها أن يقول الآن؟.

نظرنا جميعاً إلى وليد، وفى أعيننا ذلك الكم الهائل من الأسئلة. تلك التي تكون في الأعينِ أكثر وقعاً من أن تُقال.

نهض من مكانهُ، ثم حضنها وفاجأه البكاء. بكاؤهُ زاد من بكائِها، وأبكانا جميعاً. فثمة أجوبة أكثر إيلاماً حين تُقال، وتكون الدموع لها خير رسول!.

سيرحل عنها وليد، ويتركُها مع الريح كما تركاها والداها من قبل. ورغم وعوده لها بالاتصال يومياً بها ما توقفت مودة عن النشيج.

هدأتاها قليلاً أميمة وإنتصار بتلك الجُملِ التي تُستخدم كضماداتٍ جاهزة لمثل هذه الجراح!.

وبعد أن أجلستاها على طرف السرير، دفنت رأسها بين كفيها وواصلت البكاء، سألت علوية وليد وكأنها أرادت أن تضع كل شيء مرةً واحد على الطاولة:

- وماذا بخصوص الطفل؟!.

أجابها ، دون أن يفكر:

- يمكنك الآن أن تتصلي بالقابلة!.

ثم أردف، وعيناه تذرفان الدموع مُجدداً:

- لا أستطيع أن أسافر وأتركها مع الطفل هكذا، لا أعلم متى سأستطيع أن أعود إلى السودان، ولا أريدُ أن يأتي طفلي إلى هذا العالمِ دون أب، أو أن يسمع يوماً أنه ابن حرام مثل جوكس!.

لم يغير وقع هذه الكلمات من نبرة بكاء مودة، وكأن رحيلهُ أكثر فاجعةً من إثنائه على اقتراح علوية القاضي بإجهاض الجنين بذريعة أنهُ لا يريد أن يُولد ابنهُ دون أب رسمي أو يُنعت يوما ب"ابن حرام". تصيبهُ العقد النفسية، ويُؤثر العزلة والوحدة مثل جوكس الذى يُقال عنه مجنون.

أو ربما كانت متواطئة هي أيضاً مع فكرة الإجهاض في مكانٍ ما. وإن كان كذلك فهذا دليل بينّ أن هذا الطفل من وليد وجاء عن غير قصد.

ولذلك فكرة إجهاضهِ أقل كارثية من رحيل وليد نفسه.

اصطحبت أميمة وانتصار -مودة - إلى إحدى الغرف،

انقادت لهما وكأن النقاش أصبح فجأةً لا يُعنيها.

تكلمنا أنا وأحمد بعد ذلك مع وليد كثيراً للعدولِ عن هذهِ الفكرة، وأخبرناه أنه قد يكون لها نتائج خطيرة.

كاد يقتنع برأينا بيد أن علوية استماتت في التأكيد له، أن الإجهاض هو الحل الوحيد، وخصوصاً بعد ظهور سفرهِ المفاجئ بعد غدٍ.

كدتُ.. أن أصرخ فيه بملء صوتي وأقول له إن علوية لا تُريد مودة أن تنجب هذا الطفل حتى لا يُلهيها عن عملِها، لأنها أجمل بناتها ومعظم الزبائن لا يحبذون الداعرات الأمهات.

وقد تكون علوية سلفاً قد اتفقت مع القابلة بأن تمنحها مبلغاً مالياً بعد العملية. لأنها هي السمسارة بينكما، وقد ساهمت في إقناعك بالقبول.

ولكن خشيتُ أن لا يفهمني، ويخالني أكذب عليه. ولذلك وجدتنى أقول:

- إن القابلات هنا يا وليد لم يخضعنّ إلى كورسات تدريبية كافية حتى عن الولادة ذاتها، فما بالك بالإجهاض الذي غالباً ما يصطحبهُ نزيف حاد يحتاج إلى عناية طبية

مُكثفة؟!.

أضاف أحمد داعماً لكلامي:

- نعم.. هذه النقطة مهمة للغاية، وأظنك قد سمعت بالوفياتِ بين الحين والآخر بسبب هذا الموضوع.

قالت علوية لطمأنتهِ:

- شامة داية مُتمرسة، اشتغلت في الشغلة دي خمستاشر سنة. وبعدين دى ما أول عملية إجهاض تعملها، وأنا بنفسي شاهدة على كتير من عملياتها!.

قال وليد مُتذمراً، وهو يفرك فروة رأسهِ بكفهِ:

- أنا أيضاً أفضل طبيباً مُتخصصاً في ذلك، وليس لديّ مشكلة بخصوص المال. ولكن حسب معرفتي لا يوجد طبيب واحد في السودان مُصرح له القيام بمثل هذه العمليات، إنها مُحرمة بنص القانون.

قد صدق في هذا. تذكرتُ ذلك الطبيب الذي تناولت قصتهُ الجرائد حين قام بعملية إجهاض لامرأة توسلت له أن يجريها لها لعدم رغبتها في الطفل من الأساس.

سحبت منه السلطات شهادتهِ الجامعية بعد أن أوشى به

زميله، وحُكم عليه بالسجن خمس سنوات مع غرامة مالية ضخمة، وكانت تلك الجزاءات بذريعةِ أن هذا الطفل ما شاءه له الرحمن، فكيف لبشرٍ أن يقف ضد إرادتهِ؟!.

وأذكر أن تزامنت هذه الحادثة مع انهيار اثنتين من العمارات المُنْشَأة حديثاً، والتي كان المهندس المُشرف عليها ابن وزير الداخلية.

مات سبعة أشخاص من العمال والمواطنين، فكرمت الدولة والده بإعفائهِ من الداخلية وترقيته ليصبح وزيراً للدفاع. قد تكون الذريعة هنا أن الانهيار سببهُ الشيطان ووزارة الدفاع هي الأنسب لمجابهتهِ!

رتب وليد مع علوية كل شيء تقريباً. سلمها نصف المبلغ كعربون لتُعطيه للقابلة مُقدماً، ثم اتفق معها أن تتم العملية غداً في الحادية عشرة صباحاً باعتبار أنه اليوم الأخير له في السودان!.

بعد انتهائهِ من الترتيب مع علوية، دخل إلى مودة في الغرفة وتكلم معها طويلاً، ثم جاءنا في الراكوبةِ ومودة أحسن حالاً.

اعتذر وليد على أنهُ مُضطر إلى أن يرجع إلى البيتِ لأن هاتفهُ مُغلق وحتى لا يقلق عليه والده ويأتي إلى هنا. ثم ودعنا

على أن يكون معنا غداً صباحاً.. وغادر.

وضعنا وليد وعلوية في الأمرِ الواقع، ولم يكن في طاقتنِا الذهاب إلى الداخلية والرجوع إلى هنا صباح الغد، فلا يصح - بأي حال- أن نترك وليد وحده في هذه الظروف. إضافةً إلى أننا كنا في حوجةٍ ماسةٍ إلى نوع جيد من الخمور، ولذلك قررنا أن نقضى ليلتنا هنا في بيت علوية.

وقبيل أن ينصب الليل سراديق ظلمتهِ، ذهبنا إلى أقرب بائعة خمور بلدية وأخذنا منها قارورتين ثم عدنا. أخرجنا مقعدين من الراكوبة وجلسنا في إحدى زوايا البيت، نتجرع مرارة العرقي عساها تخفف علينا بعض مرارة ما تجرعناه اليوم قسراً.

كما لم نكن بحوجة بأي حال إلى شخص ثالث. ولحسن الحظ ذهبت علوية إلى القابلة ولم تعد إلى الآن، وإلاّ لكانت عكرت علينا ليلتنا كما فعلت بنهارنا ومسائنا.

ولفرط ما كان لدينا لنقوله، ما بقى بحوزتنا ما يُقال.

تجرعنا كؤوسنا الواحد تلو الآخر حتى أدركنا وعى التغابي، ثم اتجهنا إلى الراكوبة وتمددنا على الأسرةِ نائمين.

استيقظتُ صبيحة اليوم التالي باكراً، وبأسوأ ما يكون من

المزاج، جلستُ على أحد مقاعد البارحة، ورفعتُ قدماي على المقعد الآخر وأشعلتُ سيجارة.

سوبا تبدو أهدأ في هذه الساعة من الصباح. هدوءاً يتخللهُ نهيقُ حمارٍ أحياناً من جهات مختلفة. رنوّتُ إلى الأفقِ وأمعنتُ النظر إلى سحابةٍ ناحلةٍ تبدو أقرب إلى الأرض وأسرع من أخواتِها. تُشكل عبثية شكلها ناقةً حيناً، وخيمةً أحياناً أخرى.

أشجاني هديل قمريتين تناجيان بعضهما من فوقِ شجرةِ اللّالوبة. سألتُ نفسى هل كان يمكن تفادي كل الذى جرى!؟.

غداً أول أيام الامتحانات وسندخلها بِخُفي حنين، وسيسافر وليد راجعاً إلى مأساتهِ الأولى. كما ستجرى اليوم عملية الإجهاض لمودة.

تذكرتُ قول الروائية أحلام مستغانمي بأن "كل إجهاضٍ ليس سوى نتيجةِ حملٍ تم خارج رحم المنطق"! بيد كان عليها أنْ تُقرن مفردة -منطق- بالاجتماعي!.

إذ إن لا منطق سواه يلزمنا بإجهاض جنين أو الإبقاء عليه. لأن قيم المجتمع الذى نعيش فيه هي البوليس الذى يرفع عصاه على كل من تُخولّ له نفسه بالخروج عليها.

وبما أن المجتمع نفسهُ هو الذى يُنتج قيمهُ من خلالِ علاقة أفراده ببعضهم البعض، وبالمحيط البيئي الذى حولهم في علاقة جدلية تُناسب حِراكهم الاجتماعي فى فضاء جغرافي على مدى تاريخي طويل.

يصبح جون بول سارتر على حق حين قال إن "الآخرين هم الجحيم". وأنا أقول بل لا جحيم لنا إلاَّ الآخرون!.

هم من يملكون حق تجريمنا بمعايير في أدمغتهم لم نشاركهم في تشكيلها في الأمسِ البعيد، وهم كذلك يملكون صكوك الغفران.

وكثيرون في هذا المجتمع من أجهضوا أطفالهم رغم رغبتهم فيهم، ولأنهم -وبكل بساطة- لا يملكون تلك الورقة التي لا تتجاوز أسطرها الثمانية أسطر ويطلقون عليها عقد زواج!.

نحن نعيش في مجتمعٍ يملكُ المأذون فيه حق منحنا شرعية إنجاب طفل أكثر مما تملكه العاطفة التي جمعت بين والديه.

مَن ذاك الذى اختزل كل شرف العائلة في غشاء بكارة أنثى، يمكن أن ينفض بسهولة أثناء امتطائها ظهر حمار؟!.

شغلت هذه الأسئلة تفكيري. وقبل أن أحصل على إجابات

عليها، خرجت أميمة من غرفتها متجهة صوب الحمام. يُغالب عينيها نُعاسٌ جميل. حيتني تحية الصباحِ مقرونة بتلويحة يد، رددتُ لها التحيةَ مصحوبة بابتسامة أعياها طول التفكير.

بعد فترة خرجت مودة من غرفتها، وعلى وجهها أرق من هجرهُ النوم، وقضى ليلته يتقلب على لحافهِ باحِثاً عن أسئلة لم تُلفظ!. بادرتها بتحية الصباحِ، ردتها لي بابتسامة باهتة.

وبعد أقل من ساعة، كانوا جميعهم قد استيقظوا. جلسنا داخل الراكوبة نحتسي شاي الصباح عدا أميمة فقد كانت في المطبخ تعد القهوة إكراماً لأحمد الذى طلبها منها.

مودة كانت أكثر إحباطاً من ليلة أمس، وفى عينيها تلك الحمرةُ التي تُظهرها العيون إذناً بخلو محفظة المُقلِ من الدموع.

قلت لها مُداعباً ومُحاولاً إخراجها من الذى فيه:

- ليه الزول الحبيبو مُسافر، بكون زعلان وحالوا فاتر؟.

ضحكوا جميعاً وهم ينظرون إليها، بادلتهم بابتسامة تُحيل إلى ما خلفها من وجع. سألت علوية عن الساعة وكأنها تنتظر قدوم شخص ما.

خرج أحمد هاتفه ونظر إليه، ثم نظر إلى باب الشارع الذى

سمعناه يفتح .. فقال بسرعة:

- تسعة ونص.. ودقيقة بس وليد جا.

نظرنا جميعاً جهة الباب، ثم ضحكنا من مقاربته فقد كان فعلاً وليد هو من فتح الباب.

نهضت مودة وذهبت صوبه بخطى متثاقلة، وكأنها تجتر خلفها فاجعة الفراق. تلقاها فاتحاً ذراعيه بشغف والدٍ لطفله أمام باب المدرسة بعد يومهِ الأول في الدراسة. واضعاً قبلة على خدِها، ومعهما فجيعتهما دخلا علينا.

سلم علينا واحداً واحداً في أكفنا ثم جلس، وما كان أفضل منها حالاً مع مجمل الحال مع أمره!. وبعد روتين أسئلة كانت مُتوقعة عن إن كان هناك مع والدهُ من جديد . أجابنا أنهما لم يتكلما أصلاً في أي شيء، ثم سأل علوية إن كان كل شيء على ما يرام؟.

قالت له مُطمئنة وهي تضع يدها على صدرها، وتتمايل بطريقتِها المعتادة عندما تُشكر ذاتها:

- أنا علوية .. الما خابت في يدى قضية.

هز رأسه لها إيجاباً، وابتسم لها ابتسامة مُحملة بذلك الكم

الهائل من المرارة، الذى يرافق نجاحنا في شيء لم نقتنع اقتناعاً كاملاً به.

وضع يده على رأسِ مودة، وأخذ يُمررها بلطف وهو يُمعن النظر في عينيها حتى أدمعت، وكأنه كان يبثها حديثاً أكثر خصوصية وعاطفة من أن يفهمهُ الآخرون!.

جاءت أميمة ووضعت القهوة أمامنا. سلم عليها وليد وأخرج رأس دخان من جيبهِ، عُلبة سجائر ودفتر برنسيس. ثم قال وهو يضعهم قُرب صينية القهوة :

- مريت على رئاسة اللواء وجبت معاي الدخان دا من ميرى، عشان احتفل بيومي الأخير معاكم.

نظر إليّ أحمد، فتجاهلتُ نظرته حتى لا يشعر وليد أن هناك شيئاً غريباً. ولكنى فهمت ما كان يرمي إليه أحمد.

إن في مثل هذه الظروف يتحاشى الكيِّفون الدخان عادةً، وذلك تحسباً لأي شيء سيء مُحتمل الحدوث يمكن أن تقود صدمتهُ أثناء التدخين إلى الجنون، وبالتالي يفضلون الخمور البلدية التي تقوم بدور مغاير تماماً للدخان في التماسُك النفسي!.

قال لنا وليد وهو يمد ورق البرنسيس لعلوية:

- بالمناسبة، جمايكا راجل ميري مرق من السجن.

أدهشنا هذا الخبر، فقد انقطعنا عن ميري مدة طويلة ولم نتوقع أن يخرج زوجها بهذه السرعة من السجن، فسأله أحمد باندهاش:

- معقوول .. متين مرق؟!.

أجابه وليد وهو يمد له رأس الدخان ليكسره:

- قبل يومين.

صدقت إذن ميري عندما كانت تجيبنا إجابتها الواحدة تلك عندما نسألها عنه تقول "قريب ويجى مارق .. أدعوا ليه"!.

الآن قد تأكدنا فعلاً أن تُجار المخدرات الكبار لهم صلات قوية جداً داخل وزارات الدولة ذاتها. وإلاّ كيف يخرج مُعلم جمايكا أكبر تاجر دخان في طول البلادِ وعرضِها بعد أقل من عامين، وكان قد قُبض عليه متلبساً وحكم عليه بعشرين عامًا.

استلم أحمد رأس الدخان من وليد، وشمهُ ثم فجأة أبعده عن أنفهِ بطريقة غريبة، وتغيرت ملامح وجهه. فقال له وليد وهو يضحك:

- أيوه .. دي سيجارة قوية جداً!. أدتني ليها ميرى خِصيصاً لما وريتها إني مسافر بكرة .

ناولني أحمد السجارة فشممتها ، تبدو فعلاً سجارة مُختلفة للغاية. وبمثلِها يبخل المروجون ببيعها للكِيفيِّن، ويُفضلون الاحتفاظ بها لأنفسهم.

هل يا ترى صدق وليد أن ميرى أعطتها له بدون مال إكراماً له كزبون ثابت. أم أنه قد اشتراها منها بضعفِ سعرها ؟.

قطع وليد ثلاث ورقات من الدفتر، وناولها لأميمة بعد أن سكبت له القهوة. وبدأ هو بلف سيجارةٍ ثالثة، ثم طلب من أحمد أن يلف رابعة.

لم يطلب من مودة ذلك، لمعرفته إن هي دخنت معنا لن يأتي المخدر بمفعوله وسيتضاعف لها الألم في العملية.

انتهت علوية من لف سيجارتها ، ثم ناولتها لي لإشعالها لأنى بيسارها ، وسأناولها لها بعد عدة أنفاس.

ومن أول نفسين أحسستُ وكأنى دخنتُ سيجارةً كاملة. أخبرتهم بذلك وأنا أُمرر السيجارة لعلوية. ضحكوا وفركوا أكفافهم مستبشرين بنوعٍ جيد من الدخان.

كل ذلك ومودة ناطقة صمتاً وما أنزلت عينيها الحزينتين قط عن وليد، وكأنها تتشرب كل تفاصيلهِ وأبعاد الملامح.

فعندما يكون فراق من نحبهم أمراً محتوماً، يُصبح ليس لدينا من خيار سوى إتراعِ ذاكرتنا بهم.. لأننا لا نعرف - بالضبط- متى سنتوسلها لتهدينا عطر نكهتهم كمعنى للحياة.

حاول وليد أن يُغطى حزنه الداخلي بأن كان أكثر مرحاً من العادة. يُدخن ويضحك لأتفهِ الأسباب. يتحاشى النظر إلى مودة ويتكلم مع شخصين فى وقت واحد ليُعطي الجلسةَ طابعها الجماعي.

سمعنا صوت باب الشارع يفتح بصوتٍ عالٍ. مددنا رؤوسنا مُسترقين النظر بين شهقاتِ الحصير.

كانت امرأة متوسطة الطول، ونحيلة في أواخر الأربعينيات من العمر، مرتدية ثوب بولستر أبيض، وتحمل حقيبة ألمونيوم مستطيلة الشكل.

صاحت علوية أول ما رأتها:

- أهلاً .. أهلاً، اتفضلي يا شامة.

أدركنا أنها القابلة. دخلت علينا في الراكوبة وصافحتنا في

أيادينا. ثم جلست في طرف السرير بالقرب من إنتصار. ولم تُبد أي استغراب أو اندهاش من سجائر الدخان التي كانت في أيادينا.

كانت على ملامِحها قسوة واضحة، تفضح سر تواجدها في هذا المكان.

هي ذي إذن من تُخرج الأجنة قبل نموها، ومن تهب آخرين منهم الحياة!.

إن القابلة هي المرأة الوحيدة التي يرفع النساء لها أفخاذهنّ دونما يُتهمنّ بالسُحاق.

فكم يا ترى من المرات اغتسلت كفاها النحيلان بماء وضوءٍ، وكم يا ترى رأت عيناها الغائرتان من أطفالٍ لحظة خروجهم إلى الوجود، وقبل أمهاتهم حتى؟!.

فالقابلة هي المرأة الوحيدة التي يتسنى لها أن ترى الجنين قبل أمه التي حملته في بطنِها ما يزيد على قرنين وسبعة عقودٍ من الأيام.

قاسم الجنينُ أمه فيهم الرغيف والمشاوير، يضمهُ جدار رحمِها أكثر إن هي ضحكت، ويركُلها بقدمهِ القضةِ إعلاناً عن وجودهِ

إذا ما سهت عنهُ وشغلتها الحياة.

عرفتنا علوية عليها الواحد تلو الآخر، وأجلت مودة إلى آخر التعريف، ثم قالت لها:

- ودى مودة .. يا شامة.

ابتسمت حتى ظهرت أضراسها، ثم قالت:

- أهلاً مودة.

كان في عيني مودة شيء يُشبه الريبة. أحسستُ أنها خائفة من القابلة أكثر من خوفها من العملية ذاتها.

بادر وليد وقال لها وهو ممسكٌ بالسيجارة غير آبه لوجودها:

- علوية بتقول إنه خبرتك طويلة؟.

أجابته:

- ما تقلق .. اطمئن .

ثم ضحكت ضحكة قصيرة أظهرت صفار أضراسها من جديد. ناولني وليد السيجارة ثم اعتذر وأخذ مودة ودخل بها إحدى الغرف، وكأنه يريد طمأنتها.

وجدتُ ذهاب مودة مع وليد فرصة جيدة، فسألتُ القابلة:

- الطفل دا دخل في شهره التالت، ما شايفه فى خطورة

هنا ؟!.

باغتها سؤالي، ونظرت إلى علوية ثم أجابتني:

- مافي مشكلة إن شاء الله!.

أردف أحمد سائلاً:

- حتى لو كانت مختونة، برضه ما مشكلة؟!.

نظرت إلى علوية من جديد مُتذمرة. نظرت إلينا علوية وهى تضحك بكياسةِ ثم قالت:

- أسئلتكم مالها كتيرة كده يا جماعة، ما قلت ليكم ما تقلقوا هي عارفة شغلها كويس!.

نهضت علوية وطلبت منها المجيء معها، وقادتها إلى شجرة اللالوبة وجلستا تحتها يتكلمان عن أمرٍ ما وشامة كانت تبدو مُنفعِلة.

إن قمع علوية لنا بهذه الطريقة، وانفعال القابلة معها شككني بأنها لم تُعطها المعلومات كاملة عن مودة.

كما أن سؤال أحمد قد لفت انتباهي إلى أن ختان مودة قد يُصعِب فعلاً عملية الإجهاض.

بعد فترة خرج وليد ومعه مودة مُطوقاً خصرها بيده اليمنى،

ومن احمرار عينيهما يبدو أنهما ذرفا الكثير من الدمع .

نادى وليد علوية وتكلم معها قليلاً. ثم نادت علوية على شامة التي جاءت حاملة حقيبتها. تكلموا فترة ليست بالقصيرة، ثم نادى علينا وليد وأخبرنا أن عملية الإجهاض سوف تبدأ الآن.

حضنت أميمة مودة وبكت قليلا، وكذلك فعلت إنتصار. حضنتها أنا بسرعة وطمأنتها أن كل شيء سيكون على ما يرام، ثم سلم عليها أحمد مُطمئناً أيضاً.

ثم جاء إليها وليد.. وضمها إليه بعنفِ الفاجعة، وأجهشا بالبكاء!.

أمطرت أعينهما وهما يعانقان بعضهما حد التلاحم، وما كان طفلهما قد بلغ من الشهور ما يكفى ليُحرك في بطنها طرفهُ وكأنه يقول له : "عذراً أبى، لا تضغط على أمي كثيراً .. فأنا هنا".

إن منظرهما ومودة دافنة رأسها في صدرهِ قد رقت له قلوبُنا، فشاطرناهما البكاء، فقد كانت اللحظة مُترعة بالشجنِ.

قاومتُ دمعي وذهبتُ صوبه، ضغطتُ على كتفه بكفى وقلتُ

له:

- سيكون كل شيء على ما يرام، فقط اهدأ يا وليد.

جاء إلينا أحمد وحذا بحذوي حتى أفلت وليد يده منها، ثم جاءت علوية وسحبت مودة وهي تبكي إلى الداخل، ثم لحقت بهما القابلة.

رجعنا جميعاً إلى الراكوبة ومعنا وليد الذي جلس على السرير دافناً رأسهُ بين كفيه وهو يُقاوم بكاءه.

جلسنا نحنُ في أماكننا صامتين، رفع رأسهُ بعد فترة ومسح بظهر كف يده دموعه. ثم أخذ سيجارة الدخان المطفأة من الطاولة وأشعلها. ثم طلب من أحمد وأميمة لف سيجارتين أُخرتين.

أصبح وليد يجر أنفاس السيجارة بنهمٍ أكبر، وما تكاد تصل سيجارة نصفها حتى يطالب بلف سيجارةٍ أخرى. وبعد أن أخبرتهُ أننا قد أكتفينا، لأننا فعلاً دخنا الكثير، وكذلك قالت له أميمة وإنتصار ونصحتاه أن يتوقف عن التدخين، لم يكترث لنا وأمسى يلف لنفسهِ ويُدخن وحده.

قصدتُ ومعي أحمد فتح مواضيع مثيرة للنقاش حتى نخرجهُ

من الذى فيه، وكذلك شاركتنا أميمة وإنتصار. لكنه لم يُولِ سمعهُ إلينا وبدا كثير السرحان.

خالجتني من جديد تلك الأسئلة التي راودتني هذا الصباح. هل كان يمكن تفادي كل الذى جرى؟. وكيف كان يمكن أن يكون هذا التفادي؟.

أبِكبت غرائزنا حتى نتحولُ إلى حالاتٍ مرضيةٍ صريحة؟ أم بإطلاق العنان لها وعدم قمع رغبات الجسد؟!.

ثم هل يمكن أن يتم تقنينها بالزواج؟. أليست كارثة في حد ذاتها أن يكون الدافع الأساسي والرئيسي للزواج إشباع الغريزة الجنسية المحضة؟!.

ومتى يكون ذلك الزواج؟.

أعند بلوغنا ونبت شعر إبطينا، أم حين تحين ظروفه المُواتية؟ وإن كان كذلك ماذا نفعل في الفترة بينهما؟!.

وقبل أن أصل إلى إجابة واحدة من تلك الأسئلة، قطع حبل شرودي صوت وليد وهو يطلب من أميمة تسخين قهوته التي نساها حتى بردت. قالت له أميمة مُداعبةً وهى تأخذ القهوة من أمامه:

- الحمدلله ما نسيتنا انحنا يا وليد.

ضحك نصف ضحكة، وقال لها:

- إنتو .. إنتوا بتتنسوا؟.

ضحكنا معهُ، كان أن يجيبها بصيغة سؤال "الانتم تُنسوا؟" مدخل جيد لفتح حوار معهُ. خصوصاً وأن هذا العبارة مُقتطفة من أغنية سودانية معروفة.

سأله أحمد إن كان يسمع للفنان صلاح بن البادية؟. أجابهُ وليد وهو يضحك من أعماقه هذه المرة:

- أنا بفضل الفنان الطيب عبد الله، لكن خفته أقول ليها "قالوا لي أنساهو" ما تسخن لي أميمة القهوة.

ضحكنا جميعاً من ذكاء مقاربته. إذ إن العبارة أيضاً هي مقتطفة من أغنية سودانية أخرى معروفة للفنان الطيب عبدالله. أخذت أميمة القهوة وهى تضحك متجهةً صوب المطبخ لتسخينِها.

وفجأة.. خرجت علوية راكضة خارج الغرفة التي تتم فيها العملية لمودة، واضعة يديها فوق رأسِها وهى تصرُخ:

- أوّوب عليّ .. سجمى .. أوّوب عليّ!.

أسفل قاع المدينة

أسقطت أميمة القهوة التي تحملها، ووضعت يدها على فمِها وتجمدت مكانها.

هرعنا جميعاً إلى علوية مذعورين، ومستبعدين أقرب احتمال.

سألناها ماذا جرى؟!.

نظرت إلينا بعينيها المسكونتين بالرعب حد الوجوم.. ولم تجب.

ركض وليد إلى الغرفة ولحقنا به. دفع بابها الموارب بقوة ودخلنا ويااا هول ما رَأَيْنَا.

مودة على السرير عائمة في بحرِ دمائها!. نصفها الأسفل عارٍ تماماً، ورجلاها مفروجتان على أقصاهما. عينيها بيضاويتين وذائقتين في عالم وحدها الآن تعرفهُ!.

وضع وليد يديهِ فوق رأسهِ، وتمددت عيناه إلى فوق مستوى الصدمة وهو ينظر إليها.

ملِتُ على القابلة الجالسة على مقعد قرب السرير دافنة رأسَها بين كفيها وهي مُحدقةً إلى الأرضِ. مسكتها من كتفيها النحيلتين، وهززتها بقوة صارخاً فيها:

- إتكلمى .. قولى الحاصل شنو؟!.

رفعت رأسها ببرود، ثم قالت:

- ماتت .. مودة ماتت!!.

قفز وليد إلى الباب، ودفع إنتصار التي كانت أمامهُ حتى وقعت، ثم وقف في نصف فناء البيت وصرخ بملء صوتهِ:

- مودة .. لا لا، مودة لا .. لاا!.

ثم جثا على ركبتيه في مكانهِ. يبكى صارخاً بِحُرقة وهو ينظر إلى السماء مُردداً اسمها تارةً، ويضحك بهستيريا تارةً أخرى!.

أوقفت القمريتان هديلهما الحنين مِن فوق شجرةِ اللالوبة من جراء صرختهِ، ثم طارتا حاملتين عقلهُ إلى مكانٍ لا يعرفه أحد!.

انْتَهَت

الساعة ٩:٢١ مساءً - نيروبي /كينيا

أمعنتُ النظر في وليد وهو ينفثُ دخانَ السجارةِ ، ويرشِف القهوةَ بمتعةٍ فريدةٍ ، وازرار قميصهِ الثلاثة الاولى مفتوحة .
أدركتُ حينها ، وحينها فقط انه مثل الكثيرين ألآن قد رحل إلى أسـفـل قـاع الـمـديـنـة !،
حـيـثُ كـلِ أنـواعِ الـشـراب ..
ورائـحـة الـجـنـس المُـخـمرِ ،
وأسـاطـير الـبـطـولة . هنـاك ..
حيـثُ تُـناجى الأمـانى بالمخيلةِ وتموتُ الاشيا، ..!

